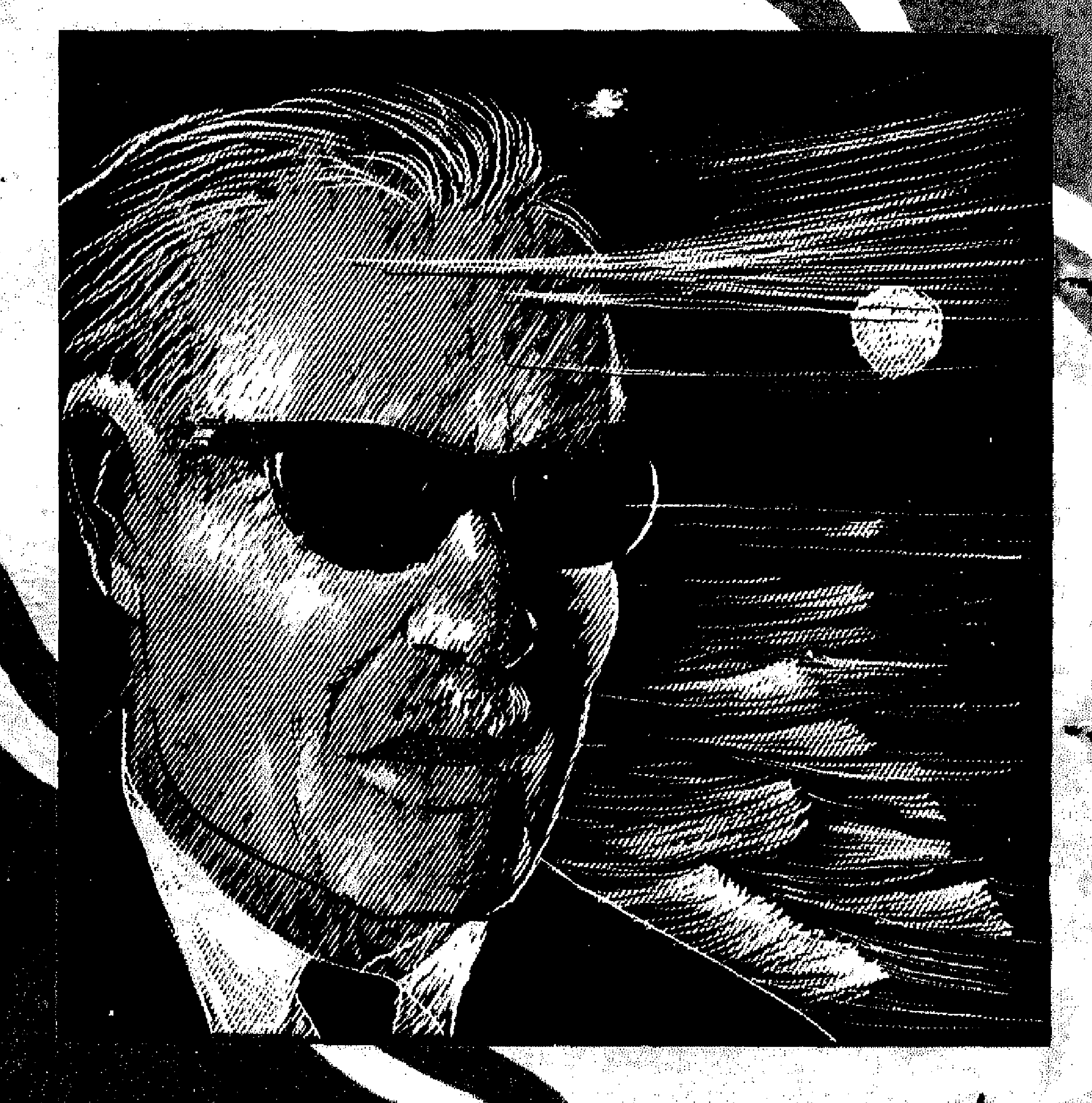
اقرأ

رحلة الربيع



طه حسين

رحلة الربيع

طه حسين

رحلة الربيع

اقرأ ٦٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٩ — الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

رحلة الربيع

وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفى الوقت نفسه أقلعت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبئ السحاب فى رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة ، فينقشع السحاب خفيفاً رشيقاً ، وتقبل الشمس فى أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها فى حب وحنان . ونصعد نحن فى أثناء ذلك وقد استحضرنا عقلنا كله وحسنا كله وشعورنا كله فقطعنا كل ما كان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حباً لها وإعجاباً بها وفناء فيها .

وقضينا فى القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر فى ساعتين ؛ فهذه خصلة خص بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه ، وأن

يخلص للماضى أو لقطعة من الماضى إن أحب أن يخلص لها، وأن يمضى فى المستقبل إلى غير غاية وعلى غير هدى ، وأن يقف فى الحاضر لا يعدوه إلى أمام ولا إلى وراء، وأن يجمع إن شاء بين هذا كله فيفرق نفسه تفريقا. وقد تركنا المستقبل لمن بيده المستقبل . وتركنا الحاضر للذين يشغلون بالحاضر ، وألغينا من الماضى ثلاثة وعشرين قرناً، وأهملنا من الماضى قروناً أخرى لا تحصى سبقت هذا العصر الذى اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين . وألغينا من آماد المكان مثل ما ألغينا من آماد الزمان، فتركنا الأرض القريبة والبعيدة، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذى يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض فى هذه القطعة الصغيرة من الدهر . وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية لا نعرف غيرها ولا تكاد هى تعرف غيرنا؛ فقد سبقنا إليها أهل السفينة جميعاً وبلغناها قبل أن يبلغها أحد فخلونا إليها وخلت إلينا ، وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء؛ فذكرناها وسنذكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة، ونسيتنا هى

وستنسانا كما نسيت أجيالا كثيرة وكما ستنسى أجيالا كثيرة ما امتدت لها أسباب البقاء . وكان الذين يكتنفوننى من الأهل والرفاق يسعون من حولى ، وقدأخذت أبصارهم وسحرت عقولهم واستهويت قلوبهم ، وجعلت أفواههم وألسنتهم تنقل إلى بعض ما يجدون بهذه الآهات الطويلة المتصلة وهذه الألفاظ القليلة المتقطعة التى ينطق بها المبهورون المسحورون حين يأخذ الإعجاب عليهم طريق الإبانة والإفصاح . وكنت أسمع لهم بإحدى أذنى أو بجزء يسير من إحدى أذنى ، أعرض عنهم بعقلى كله وقلبى كله وضميرى كله . أتركهم لما يرون وأفرغ لما أجد ، وما أكثر ما كنت أجد! وما أشد اختلاف ما كنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش فى هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ونمو الفن وحياة الشعور ويقظة الضمير . ويرى طريق الحضارة والرقى ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعاً ، ويقال لها هذه هى الطريق التى ستسلكينها راضية أو كارهة راغبة أو راهبة لا تخرجين منها ولا تتحولين عنها مهما تلق فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى

السماء كطى السجل للكتاب .

فنى هذه القرون الثلاثة وفى هذه القطعة الضيقة من الأرض التى يحيط بها الطرف فى أيسر الجهد ويطوف بها الإنسان فى أقصر الوقت ، عرف الإنسان أن له عقلا وشعوراً وضميراً وأن له من أجل ذلك حقا فى أن يكون حرًّا كريماً ،وأن عليه من أجل ذلك واجباً أن يرعى لنظرائه حقهم فى الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لا يتنزل من السماء وإنما يخرج من الأرض، وأن بين الحاكم والمحكوم عقداً اجتماعيًّا تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التى تنقش فى القلوب أولاً ثم تكتب فى الصحف بعد ذلك .

وعرفت الإنسانية أن الناس سواء أمام القانون لا يمتاز منهم فرد من فرد ولاتتفوق منهم طبقة على طبقة ، ولا يتفاوتون فيما بينهم إلا بالعمل الصالح والبلاء الحسن ، واستطاع سولون أن يتغنى فى شعره الرائع بأنه حرر الأرض فلم تصبح وقفاً على فريق من الناس دون فريق .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض نظمت القوانين ما يكون من الصلات بين الحاكمين والمحكومين، وردت القوانين إلى الشعب أمور الشعب. وجعلت القوانين حكام الشعب خداماً للشعب، وفرضت القوانين على حكام الشعب أن يؤدوا إلى الشعب حساباً دقيقاً عما نهضوا به من المناصب، وما استقلوا به من الأعباء، وما قاموا به من الأعمال.

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر، وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض، نما الفن الرائع، وزها الشعر البارع، وأزهر الأدب الرفيع، وطوف سقراط بفلسفته فى الشوارع والأزقة، يعلم الناس وهو يحاورهم أن عليهم أن يعرفوا أنفسهم وأن يثقفوها وأن يهذبوها وأن يرفعوها من الصفو والعفو إلى حيث تطهر من دنس المنافع الوضيعة وتبرأ من أوضار الحياة الخسيسة وتعيش فى جو من الفضيلة لا تجد الرذيلة إليه سبيلا. ويعلم الناس وهو يحاورهم أن للإنسان ضميراً حراً ليس لأحد سلطان عليه ولا ينبغى أن يكون موضوعاً للمساومة ولا سلعة تعرض للتجارة، وأن حرية الضمير وحرية التفكير وحرية التعبير هى التى تجعل

الإنسان إنساناً ، فلما امتحن سقراط فى فلسفته هذه صبر للمحنة وثبت للفتنة ، وعلم تلاميذه وهو يحاورهم كيف يستقبل الإنسان الحر إلمام الخطب حين يلم ، وزيارة الموت حين يزور مبتسما للخطب لأنه زائل، وساخراً من الموت لأنه عارض من ورائه الخلود . وفى هذا الوقت نفسه كان سوفوكل ينطق أنتيجونا فى ملعب التمثيل بأن هناك قوانين خالدة وجدت قبل الإنسان وستوجد بعد الإنسان وهى قوام الخلق وملاك العقل ؛ فليس لأحد عليها سلطان وليس للمخلوق على الناس طاعة إن خالف عن هذه القوانين .

نعم ! فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، عرف الإنسان عقله وقلبه وضميره ، ورسمت له فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس مناهج التفكير والشعور والسيرة ، وشقت له طريق الرقى ، وعلمته الطموح إلى الكمال والارتفاع عن النقص والتنزه عما يشين .

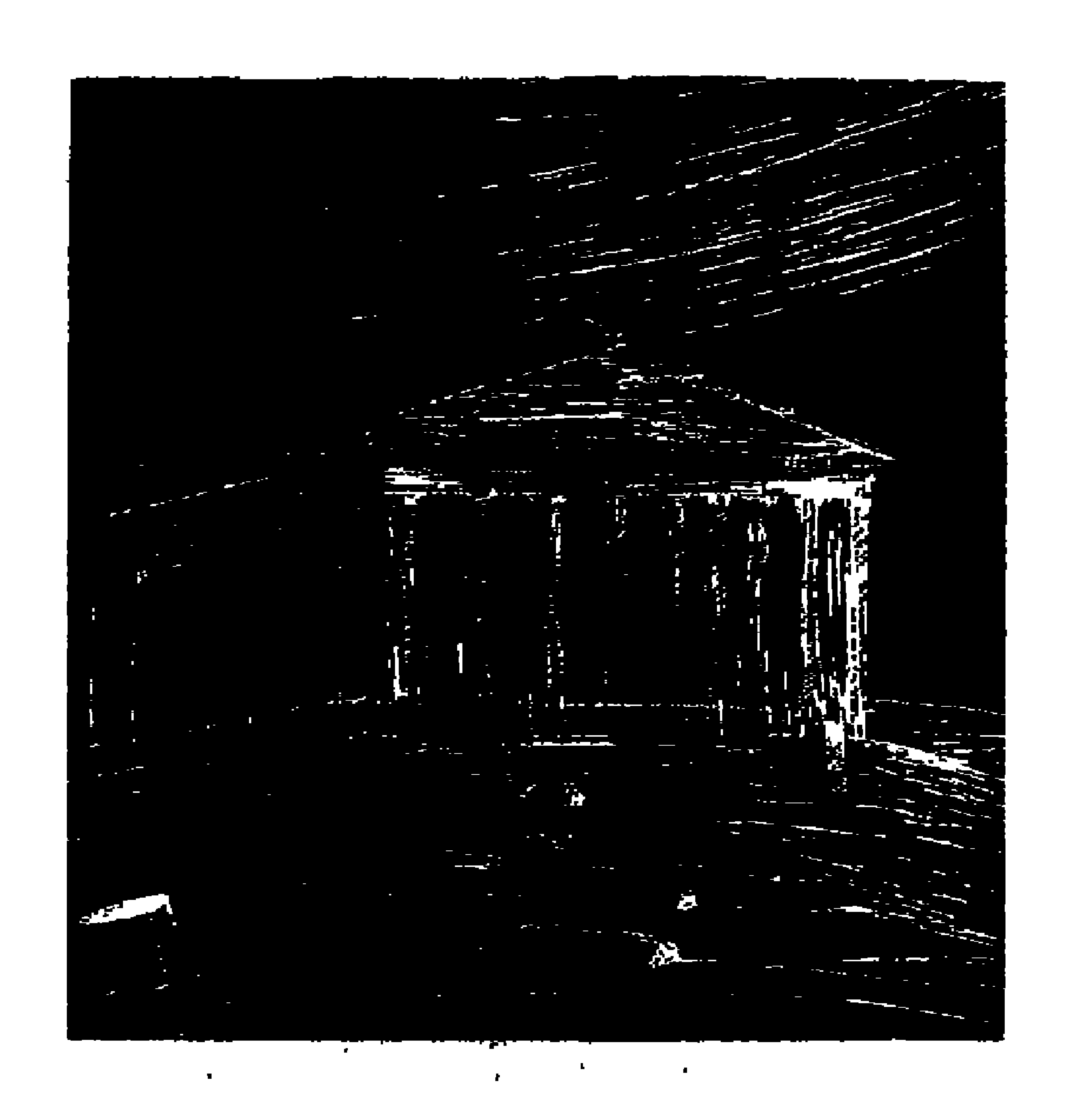
فى هذا كله وفى أكثر من هذا كله كنت أفكر ونحن نسعى فى هذه الأطلال اليونانية مستحضراً تلك الحقبة من الدهر متمثلا ما كان فيها من خير كثير وشر كثير ، وما كان فيها من صراع

بين الحق والباطل ، وما كان فيها من اختصام بين العدل والجور ، وما كان فيها من جهاد بين الرفعة والضعة ، وما كان فيها من ثورة على باطل الحياة وزخرفها ومن سمو إلى المثل العليا . وكنت أسمع خطباء الأتينيين ينافح بعضهم عن الحق ناصحاً ويموه بعضهم على الجماهير مضللا . وكنت أشهد ملاعب التمثيل وأرى أصحاب المأساة يرفعون الإنسان إلى صف الآلهة وأصحاب الملهاة يضعون الإنسان إلى منزلة الحيوان . وكنت أسمع حوار سقراط وأرقى مع أفلاطون إلى مثله الأعلى ، وأعود مع أرسطاطاليس إلى بحثه المتواضع الرفيع ، وأشهد الأحداث الكبرى تحدث بعيداً عن أتينا وتحدث قريباً من أتينا وتحدث فى قلب أتينا ، وأرى جماعة الشعب تحاور فى هذا كله وتقضى فى هذا كله تصيب حيناً وتخطىء أحياناً ، ولكنها مستمسكة دائماً بحقها فى السيادة والسلطان والاستئثار بتدبير أمرها من دون الطغاة . وكنت قد تركت فى مصر شراً ونكراً وإثما ، وخرجت وفى نفسى شىء من شرها ونكرها وإثمها ، فلما بلغت أصل القلعة وجعلت أرقى فيها قليلا قليلا ، وأتنفس من هوائها ذلك العذب ، وأتنسم من عبيرها ذلك الأرج وأعيش فى تاريخها ذلك الرائع ، أحسست

كأن ما علق بنفسي من الشر والنكر والإثم قد جعل يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وكأن نفسي قد جعلت تتخفف من عبء باهظ وثقل ثقيل ، حتى إذا بلغت البارتنون وجدتني خفيف النفس نظيف القلب صحيح العقل نقي الضمير ، وإذا أنا أدعو إلى شعراء المأساة والملهاة ، وأدعو إلى رواة القصص وكتاب التاريخ ، وأدعو إلى سقراط ومحاوريه وأفلاطون ومناظريه وأرسطاطاليس وتلاميذه ، وأبرأ إليهم جميعاً من الشر والنكر والإثم وأشهدهم جميعاً على أني قد وفيت لمثلهم العليا فلم أنقض عهداً . ولم أضع وداً . ولم أخن صديقاً . ولم أغدر خليلا ، ولم أشتر الراحة والدعة واللين بثمن بخس دراهم ودنانير تعد أو لا تعد . وإذا أنا أعاهدهم على أني سأنفق ما بقي لي من الحياة كما أنفقت ما مضى عني من الحياة وفياً للحق حفياً بالفضيلة مترفعاً عما يخس الرجل ويزري بالمروءة ، متبرئاً من خيانة الأصدقاء والغدر بالأخلاء وبيع الضمير بالمال القليل أو الكثير .

وأنا في ذلك وإذا زوجي تهتف بي : أين أنت ! ألا تسمع لما يقال من حولك ؟ فأعود إليها مترفقاً مبتسما ، وأعتذر إليها في سذاجة بأني كنت أعيش في القرن الخامس والرابع قبل المسيح .

قالت وتضاحكت وتضاحك من حولنا : فعد إلى القرن العشرين بعد المسيح ، واهبط معنا إلى حيث يعيش الناس فى المدينة الحية ؛ فقد يخيل إلىّ أنك أنسيت قهوة الضحى .



٢

ونهبط متمهلين مترفقين نسعى قليلا لنقف كثيراً ، والرفاق من حولى يمدون أبصارهم إلى هذه الناحية أو تلك ليروا هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الحكمة والفلسفة والأدب والفن والتاريخ . يمدون أبصارهم فى هذه الناحية ليروا قمة البارناس ، ويمدون أبصارهم فى تلك الناحية ليروا صخرة سلاميس . فعلى قلمة البارناس تجلت روعة أبولون فملأت الأرض جمالا ونورا . وعند صخرة سلاميس تحطم أسطول الملك الأعظم فانتصرت قوة العقل على قوة الملك وسعة السلطان . ولا يكاد الرفاق يردون أبصارهم بعد أن مدوها حتى تقف بها الطريق فتتعلق بهذا الأثر أو ذاك من هذه الآثار القريبة التى وقفوا عندها فأطالوا الوقوف ولكنهم لايستطيعون أن ينصرفوا عنها ، قد علقت بها نفوسهم فلا يستطيعون لها استخلاصاً إلا فى كثير من الجهد الشاق العنيف كأنها قطع الحرير قد علقت بالشوك، فلا بد

من الحيلة الدقيقة الرفيقة لاستخلاصها منه دون أن يلحقها البلى . وربما انحنى الرفاق فجاءة إلى الأرض لا يحاولون ركوعاً ولا سجوداً . وإنما دعتهم هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذى ينبت فى أعقاب الغيث بين ما تشقق من الصخور . وأنا بين الرفاق ساهم واجم أسعى متعثراً وأقف حيران وجلا أود لو طال الوقوف فأتزود من عبير عرار نجد ، فما بعد هذا الضحى من عرار . وأتغنى فى نفسى سسينية البحترى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى
وترفعت عن جدا كل جبس

ولكنى أضع « يونان » مكان « ساسان » وتتغنى نفسى الكئيب بيت البحترى على هذا النحو :

أتسلى عن الخطوب وآسى لمحل من آل يونان درس

وقد ارتفع الضحى وأوشك النهار أن ينتصف حين هبطنا من المدينة العليا مدينة الموتى والآلهة ، إلى المدينة السفلى مدينة الأحياء والمنافع وما تجر المنافع على الناس من الأرزاء والكوارث والخطوب . وهؤلاء رفاقى قد ردوا نفوسهم العاقلة الشاعرة إلى

أماكنها الخفية القصية من أعماق الضمائر، واستردوا نفوسهم المفكرة المدبرة، واستقبلوا الحياة اليومية كما يستقبلها غيرهم من الناس، فجعلوا ينظرون إلى دور التجارة وما يعرض فيها للبيع والشراء. وجعلوا ينظرون إلى الذاهبين والآيبين يتوسمون فى وجوههم وفى أشكالهم وصورهم، ليتبينوا مظاهر النعيم عند قوم ومظاهر البؤس عند قوم آخرين، ويستخلصوا لأنفسهم رأياً عن حياة اليونان المحدثين فى مدينتهم الخالدة. فما أكثر ما قرءوا وما أكثر ما سمعوا عن حياة اليونان فى بلادهم! قوم يقولون إنها بلغت من البؤس أقصاه. وقوم يقولون إنها بلغت من النعيم أقصاه، وقوم يقولون إن اليونان كغيرهم من الناس قد لعبت بهم تلك الإلهة العمياء التى تسمى المصادفة، فأعطت بغير حساب وحرمت بغير حساب، وأمسكت بعض الناس فى نعيم ناعم. وأمسكت بعضهم الآخر فى بؤس بائس، وتركت فريقاً ثالثاً يترددون بين السعادة والشقاء. يدعون فلا يسمع لدعائهم أحد، ويمدون أكفهم إلى المصادفة فتلقى فيها الشىء بعد الشىء وتردها أصفاراً فى أكثر الأحيان؛ فهم ينفقون حياتهم فى أمل متصل وانتظار خائب، لا يستيئسون فيريحهم اليأس، ولا يظفرون

فيريحهم الظفر ، ولكنهم معلقون بين اليأس والرجاء، تعبث بهم ريح الحياة الهوجاء عبثاً مضنياً ملحًّا لا يريح منه إلا الموت .

وقد بلغنا قهوة من قهوات أتينا فنقبل عليها مكدودين، ويتلقانا خادمها باسم الثغر مشرق الوجه يعرض علينا ما عنده فى يونانية فصيحة، فإذا لم نفهم عنه عرض علينا ما عنده فى فرنسية متعثرة ، وإذا هو يعرض علينا خير ما تعرض القهوات على الناس فى بلاد الترف والرخاء . وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر فإذا المعوزون والمعدمون يسَّاقطون علينا من كل وجه ويأخذوننا من كل نحو، كلهم جائع يريد أن يطعم، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر فى وجهه البؤس وألح عليه الضرر ، وإذا قهوتنا منغصة وطعامنا إلينا بغيض، وإذا نحن ننهض متثاقلين نريد أن نفر بأنفسنا من هذه المدينة التى اختلط فيها البؤس والنعيم وامتزجت فيها الضراء والسراء، وسعد بعض أهلها حتى ضاقوا بالسعادة ، وشقى بعض أهلها حتى ضاق بهم الشقاء .

وقد فاجأتنا فى هذه المدينة بل فاجأتنا قبل أن نهبط من السفينة ظاهرة كنا نسمع عنها ولا نحققها . فالدرهم اليونانى

قد أصبح وهماً من الأوهام ، لا يكاد عقل يحقق منه صورة واضحة . ويكفى أن تعلم أن المليم المصرى يعدل ثمانية وعشرين درهماً يونانيا ، وأن القرش المصرى يعدل ثمانين ومائتى درهم يونانى وأن الجنيه المصرى يعدل ثمانية وعشرين ألف درهم يونانى ، وأننا لم نقم عن قهوتنا حتى طلب إلينا الخادم سبعة عشر ألف درهم ، ولم ننزل من سيارتنا حتى طلب الينا السائق سبعين ألف درهم ، واشترينا صحيفة ضئيلة نحيلة تصدر بالفرنسية فدفعنا ثمنها خمسمائة درهم ، وعدنا إلى أماكننا من السفينة وقد أنفقنا فى صباحنا بين هذه الألوف المؤلفة أقل من ثلاثة جنيهات . فانظر إلى هذه الأرقام التى تملأ الأفواه والآذان وتروع العقل والخيال ، حتى إذا أحصيت وحققت لم تتكشف إلا عن أيسير اليسير وأقل القليل . وكذلك حياة اليونان فى أيسر ما ظهر لنا أثناء هذه الساعات القصار ألفاظ ضخمة تملأ الأفواه والآذان وتروق العقل والخيال ، ثم تتكشف آخر الأمر عن غير طائل ولا غناء . وإنما هو الجو الذى عاش اليونان فيه دائماً ، جو البغض الكثير والحب القليل ، والصراع المهلك بين الإخوة لا يحفل بشىء ولا يبقى على شىء ولا يتحرج من شىء ولا يكره الاستعانة

بالأجنبي على الأخ الشقيق والخليل الصديق .

كذلك عاش اليونان فى عصورهم القديمة، فانقسم أهل أتينا بين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين للفرس و بين المتعصبين لإسبرتا والمتعصبين لمقدونيا . وهم الآن ينقسمون بين المتعصبين للشيوعية الروسية والمتعصبين لرأس المال الأمريكى البريطانى . وأولئك وهؤلاء يتنابزون بالألقاب ويتقاذفون التهم ويتداعون بالإثم والإجرام ويهدر بعضهم دم بعض، حتى إذا جد الجد وأقبلت الكوارث الجسام رأيت الشعب اليونانى قد ثاب إلى وحدة موقوتة ولكنها رائعة تفعل الأفاعيل وتأتى بالأعاجيب . وهو حين يتفق وحين يفترق وحين يأتلف وحين يختلف وحين يتظاهر وحين يتآمر موطن مخصب العقل والقلب والضمير ، قد امتلأت نفسه خيراً حتى أفاضت الخير من حولها، وامتلأت نفسه شراً حتى أفاضت الشر من حولها، وأتاحت للحكماء والفلاسفة أن يتفكروا ويتدبروا ويملئوا الأرض حكمة وعلماً ونوراً .

وقد صعدنا إلى السفينة بعد أن انتصف النهار وقد غنيت قلوبنا بما شهدت من روعة القديم اليونانى وعبرة الحديث اليونانى. ونحن ننفق فى السفينة ساعات نضطرب فى أمورنا كما تعودنا

أن نفعل وكما تعود السفر أن يفعلوا، وأنا أريد أن أسترد نفسى فلا أجد إلى ذلك سبيلا . وقد أخذ صاحبي كتابه وجعل يقرأ فيه وجعلت أسمع له بأذنى وأعرض عنه بعقلى وقلبي . ولكن ماذا ؟ إن شيئاً يحدث فإذا أنا أعود إلى نفسى فجاءة لا لأبقى معها بل لأشغل عنها بعد قليل . فهذا الجو قد امتلأ من حولى نغماً كأروع ما يكون النغم يحمله «الراديو » من أتينا ليملأ به السفينة ويسعى معها فى البحر . وأنا أعرف هذا النغم وآلفه وتصبو إليه نفسى ، وأخلو إليه فى القاهرة بين حين وحين ، فيضع عن نفسى ما يثقلها من الإصر وما يكون عليها من الأغلال ، ويردها إلى ما أحب لها من النقاء والصفاء ، والترفع عن الصغائر والدنيات . إنه لحن بيتهوفن الذى يسمى لحن الإمبراطور . لقد أقبل علىّ فأقبلت عليه ، ولقد غمر نفسى بنور لا يشبهه إلا النور الذى غمرها فى الضحى حين كنت فى القلعة الآتينية الخالدة . جمال الآثار اليونانية يملأ النفس إشراقاً مع الصبح ، وجمال الموسيقى يملأ النفس إشراقاً مع المساء . إنى لظالم للحق ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التى تملأ جو مصر نقيقاً . وما الذى يمنعنى حين تثقل علىّ عشرة الضفادع أن

أنسل من بينها كما تنسل الشعرة من العجين ، فأخلو إلى روائع القديم وأخلو إلى روائع الحديث ، وأتعزى بجمال الأدب والفن والموسيقى عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين !

أفق أيها القلب الذى شفه الحزن وبرح به الألم وتركت فيه عشرة الناس ندوباً بغيضة . أفق أيها القلب ؛ فإن عشرة الناس لم تفرض عليك ما دمت تستطيع أن تفر منها إلى عالم كله صفاء ووفاء وطهر ونقاء ورفعة وإباء . لقد كنت كلما ألحت عليك الخطوب تتمدح بأنك قد اتخذت لنفسك شعاراً من قول أبى نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان علىّ أمير

فما لك قد أدركك الضعف وسعى إليك الوهن ، وكدت تشك فى نفسك وكدت تنكر من أمرك ما لم تتعود له إنكاراً ؟ ! لتثب إلى نفسك ولتثب إليك نفسك ، ولتضف إلى هذا البيت الذى تحبه من شعر أبى نواس بيتاً آخر طالما أحببته من شعر بشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى علىّ سواد

وقد أنكرتك مصر أو أنكرت مصر ، فخرجت منها ذات يوم

مع الصبح ، ولم تكد تنأى عنها حتى غمرك جمال القديم اليونانى فى الضحى ، وجمال موسيقى بيتهوفن مع المساء ، فنسيت مصر وأهلها ، ونسيت مكر الماكرين ، ولهوت عن غدر الصديق وعن جحود الجاحدين . والنغم من حولى يملأ الجو قد أخذ نفسى من جميع أقطارها ، وغمر قلبى من جميع وجوهه ، وإذا أنا فى هذه الساعة القصيرة الحلوة أحس كأنى أعيش مع ابنتى التى تركتها فى القاهرة ومع ابنى الذى أسعى إليه فى باريس . وقد أخذت زوجى بيدى وهى تقول لى فى همس رفيق : ألا تظن أن حياة الناس ما زالت بخير ما داموا يستطيعون أن يصعدوا إلى الأكروبوليس حين يقبل الصبح ، وأن يستمعوا إلى بيتهوفن حين يقبل الليل ؟!

٣

ذكرته منذ أشرق الصبح إلى أن أقبل الليل ؛ فلم تكد السفينة تدنو من الساحل وتستقبل ثغر جنوا حتى ملأت ذكراه قلبى وعقلى وضميرى . ولم أكد أهبط من السفينة وأمس بقدمى أرض هذه المدينة حتى أحسست كأنه يسعى معى قد أخذ ذراعى اليسرى بذراعه اليمنى ومضى معى فى أناة وتؤدة ووقار ، يتحدث إلىّ فى صوته الممتلئ الذى يستحب الهمس على الجهر ، ويطرق معى فى حديثه موضوعات مختلفة كثير منها يتصل بالدعابة والعبث الحلو أو المر ، وقليل منها يتصل بالجد الصارم .

ذلك أنى صحبته على هذا النحو منذ بضعة عشر عاماً حين شهدنا معاً مؤتمر المستشرقين الذى اجتمع فى روما سنة ١٩٣٥ وقد قضينا أيام المؤتمر نسكن داراً واحدة نغدو منها مع الصبح إلى الجامعة القديمة لنشهد جلسات المؤتمر ، ونعود إليها متلكئين حين يريد النهار أن ينتصف نسعى سعياً رفيقاً وقد نعرج على

هذه القهوة الكبيرة أو تلك القهوة الصغيرة فنلم بها إلمامة قصيرة، ثم نتكلف الإسراع إلى الدار حتى لا يطول انتظار الذين سيشاركوننا فى الغداء . ثم لا ننصرف عن طعامنا حتى نرجع إلى الجامعة مسرعين ، فنقيم فيها ما أمسكنا المؤتمرون بأحاديثهم ومحاضراتهم ،ثم نروح منها وقد تخففنا من ثقل ثقيل وفرغنا من العلم والعلماء لأحاديثنا العابثة الجادة التى لم تكن تحب أن تنتهى قبل أن ينتصف الليل . فلما تقضت أيام المؤتمر وزرنا من معاهد روما ومعالمها ما شاء الله أن نزور ، مضينا معاً إلى فلورنسا فأقمنا فيها يوماً وبعض يوم، نريد أن نزور معالمها ومعاهدها ومتاحفها فى شىء من الجد، ويأبى علينا الكسل وحب الحديث إلا أن نمضى فى شوارعها متباطئين ، ونجلس فى قهواتها كلما أتيح لنا الجلوس ، ونشترى من طرفها ما كانت تسمح لنا بشرائه ثمالة من المال بقيت لنا من سفر طويل تنقلنا فيه بين باريس وروما وغيرهما من المدن الفرنسية والإيطالية . ثم نبلغ جنوا ذات يوم حين مضى أكثر النهار ، وإذا المدينة قائمة قاعدة تشارك إيطاليا كلها فى قيامها وقعودها ؛ لأنها كانت تنتظر كما كانت إيطاليا تنتظر وكما كان العالم كله ينتظر نبأ خطيراً

وحديثاً أجل منه خطراً . فى ذلك اليوم كانت إيطاليا تنتظر أن تدعى كلها فى الأصيل إلى تعبئة تجريبية وإلى الاستماع لخطبة كان موسولينى يريد أن يلقيها على الشعب الإيطالى كله بل على العالم كله. وما هى إلا أن ينطلق ذلك الصفير المزعج ، فتمتلىء به أرجاء المدينة، وتفرغ له الدور والمتاجر والمصانع، ويهرع له الناس كلهم شيوخهم وكهولهم وشبابهم وصبيانهم إلى الميادين العامة ليسمعوا حديث موسولينى عن غزو الحبشة وتجديد الإمبراطورية الرومانية التى يجب أن يكون لها مجد طريف يشبه مجدها التليد . ولم أحس الغربة قط كما أحسستها فى ذلك المساء؛ فقد كان الايطاليون جميعاً مبتهجين تملأ قلوبهم الثقة ويغمر نفوسهم الأمل وتطمئن ضمائرهم إلى أنهم قد ملكوا الدنيا وقهروا أهل الأرض وأصبحوا للناس جميعاً سادة وقادة وعليهم جميعاً ملوكاً وحكاماً . ونجلس إلى مائدتنا حين يقبل الليل، وإذا الخادم يسعى علينا بصحافه وأكوابه وفى نفسه كثير من الازدراء لنا والعطف علينا ؛ فقد علم أننا مصريون وقدر فى نفسه أن سنكون له فى يوم من الأيام أتباعاً وخدماً ، وأن سيكون منا من يسعى لخدمته بالصحاف والأكواب كما يسعى

هو لخدمتنا ، وهو يعنف بنفسه ويشق عليها حتى لا يتحدث إلينا بما يداعب ضميره من الأمل ، ولكنه آخر الأمر لا يملك أن يقول فى ضحك ساخر: أسمعتم دعاء النفير؟ إنه إيذان بسقوط الإمبراطورية البريطانية ؛ فلن تشرق شمس الغد حتى تزلزل الأرض بهذه الإمبراطورية التى أذلت الناس ؛ والأيام دول ، فسيدال من بريطانيا العظمى لإيطاليا منذ اليوم .

ونسمع نحن فنخفى الغيظ ونكتم السخرية وتستخف نفوسنا بايطاليا وبريطانيا جميعاً . ولكننا نذكر مصر فنرثى لها ونشفق عليها ، ونسأل أنفسنا عما تضمر لها الأيام وعما سيصيبها من هذا الصراع ، ثم لا نلبث أن نعود إلى حديثنا الذى يعبث كثيراً ويجد قليلا . حتى إذا فرغنا من طعامنا خرجنا نساير ساحل البحر وفى يد كل منا سيجار ضخم يرفعه إلى فمه بين حين وحين ، والحديث متصل لا يريد أن ينقضى ، وقد بلغ السيجار آخره وتبعته السجائر الصغار ، حتى إذا أوشك الليل أن ينتصف عدنا إلى فندقنا وأوينا إلى مضاجعنا ، وغدونا مع الضحى إلى السفينة فأبحرنا عائدين إلى مصر ، وقضينا أيام السفينة فرحين مرحين ، نطرد الجد إذا ألم بنا الجد ، ونذود حديث العلم إذا خطر لنا

حديث العلم ، ولكننا لا نكاد نستقبل ثغر الإسكندرية حتى نفترق ساعة أو بعض ساعة ثم نلتقى ، وإذا هو قد دخل فى زيه القديم واسترد وقاره الذى يعرفه مواطنوه وجلس والتف حوله نفر من المصريين يتحدثون إليه ويسمعون منه فى إكبار واجلال . وأدنو فيلقانى كما تعوّد أن يلقانى فى مصر ملقياً إلىّ تحيته الحلوة بصوته العذب الذى يملؤه الجد وتستخفى فيه مع ذلك دعابة يستسيغها هو وأسيغها أنا ، ولا يحس الحاضرون منها شيئاً .

كل هذا ذكرته حين وطئت قدماى أرض جنوا ، وكل هذا استحضرته وأنا أطوف فى المدينة ألمّ بهذه القهوه وأقف عند هذا المتجر وأدخل هذا المطعم ، ولا أترك المدينة حتى أمر بالمطعم الذى أصبنا فيه عشاءنا فى يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

وأشهد لقد كنت فى ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، ويظهر الكآبة والحزن يفرح بزيارة إيطاليا التى لم يرها منذ أعلنت الحرب ، ويحزن لما أصاب المعالم والمعاهد فيها من الدمار ، ولما شاع فى نفوس أهلها وعلى وجوههم من البؤس ، ولهذه الصور التى تعرض فى بعض الشوارع تمثل بعض الذين فتكت بهم الحرب فتكا مروعاً

بشعاً، ولهذه الأزهار الرخصة التى صفت عند هذه الصور والتى يتعهدها الناس فيغيرونها قبل أن يدركها الذبول .

والآخر حزن كله وكآبة كله، ووفاء كله لا يعرف الفرح إليه سبيلا ، ولا يسمع لحديث الذين يسعون من حوله ، ولا يحس أن أحداً يسعى من حوله، وإنما يسمع لحديث واحد متصل يعبث كثيراً ويجد قليلا ، ولكنه يأتى من مكان بعيد يخترق إلىّ حجب الموت وينفذ إلىّ من طرق الحياة .

وأبلغ السفينة كاذب الفرح صادق الحزن منافقاً فيما بينى وبين الناس من صلة ، فأضطرب مع السَّفْر فيما يضطربون فيه . حتى إذا أبحرت السفينة وأقبل الليل ثم تقدم فبلغ نصفه أو كاد وهدأت الحركة من حولى ونام الأهل والزمان ، برئت من الفرح الكاذب وتخلصت من هذه الصلات المنافقة، وخلوت لا إلى نفسى ولكن إلى هذا الصديق العزيز أسمع حديثه يخترق إلىّ حجب الموت وينفذ إلىّ من طرق الحياة، وقد فنيت فى هذا الحديث حتى لم أحس شيئاً ولا خاطراً ولا فكرة ولا شعوراً . ولكنى أهبّ فجاءة وقد ملكنى الذعر وملأنى الخوف لأنى أسمع صوته، أسمعه بأذنى لا بضميرى. أسمعه كما يسمع الناس أصواتهم

حين يتحدث بعضهم إلى بعض . أسمعه وأمد يدى كأنى أريد أن أصافح يده، ولكن يدى لا تلقى شيئاً وإنما هى ممتدة فى الهواء، والصوت الحلو الجاد الذى تشيع فيه السخرية الخفية متصل يقول :

يا مؤثر السهد على النوم	عداك ما تخشى من اللوم
قد أقبل الناس على لهوهم	وماز الجد من القوم
أحافظ أنت لذكراى أم	شغلت عن أمسك باليوم

ولولا أنى وجدت فى صوته إيناساً رد إلىّ نفسى لخفت أن أصيح فأروع النائمين . ولكنى أنست إلى هذا الصوت كما تعودت دائماً أن آنس إليه، وإذا أنا أسأله من تكون ؟ وإذا أنا أسمعه يقول إنك لتعلم من أكون، سلنى إن شئت بضميرك ولا تجهر بسؤالك ولا تخافت به؛ فإن للموتى آذاناً تسمع نجوى الضمير .

وقد جعلت ألتمس نفسى وأحقق ما حولى لعلى أن أكون مغرقاً فى نوم أو هائماً فى حلم. ولكنه يردنى إلى الثقة ويؤكد لى فى صوته العذب الحلو أننى لست نائماً ولا حالماً ولا هائماً، وإنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن . وكل ما فى الأمر أنى أنكر مكانه

منى فى هذه السفينة التى تسعى بين إيطاليا وفرنسا متابعة عن بعد ساحل الريفييرا، على حين أنه قد ترك دنيانا هذه منذ عام وبعض عام . وأكاد أجيبه بأن هذا هو الشعور الذى أجده والخاطر الذى أديره فى نفسى . ولكنه ليس فى حاجة إلى أن أرد عليه رجع حديثه؛ فهو يختطف الشعور الذى أجده قبل أن أحققه فى نفسى ، ويختطف الفكرة التى تخطر لى قبل أن أستتمها فى ذهنى. وكأنه أحس أن هذا الحديث الخاطف يشق علىّ ويكلفنى من الجهد والمشقة ما يجاوز طوق الأحياء، فيعتذر إلىّ متلطفاً وهو يقول : لا بأس عليك ! فقد تحدثت إلى الموتى منذ عام وبعض عام حتى ألفت أحاديثهم الخاطفة، وأنسيت حديث الأحياء ذلك المستأنى البطىء . وأهم أن أسأله عن مكانه منى، فينبئنى بما يملأ نفسى وجلا ورعباً، وبما أحب أن يستحضره الأحياء دائماً حين يعملون وحين يقولون وحين يفكرون وحين تتصل أعمالهم وأقوالهم وخواطرهم بما كان بينهم وبين الموتى من صلة قبل أن يقطع الموت بينهم أسباب الحياة . ينبئنى بأن الموتى لا يفارقون الأرض إذا خرجوا من أجسامهم إلا بعد وقت طويل لا يعد بالأشهر ولا بالأعوام . فهم فى هذه

المهلة التى تتاح لهم قبل أن يخرجوا من الأرض موكلون بمثل ما كانوا موكلين به قبل أن يموتوا : يرون ويسمعون ويعرفون وينكرون ، ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً أو أن يحدثوا شيئاً . وهذه المهلة هى التى يشار إليها فى أحاديث الديانات والسير والأساطير بما يسمى الأعراف ، وقت يمتحن الناس فيه بعد أن يموتوا وقبل أن يتلقوا ما قضى لهم من مثوبة أو عقوبة يرون فيه أعمالهم وأقوالهم وآثارهم ، فيشقون كثيراً ويسعدون قليلا ويمحصون بما يجدون من السعادة والشقاء . ولا يبلغون آخر هذه المهلة حتى يكونوا قد خلصوا لما سيستقبلون من حياة راضية أو قاسية إلى آخر الأبد إن كان للأبد آخر .

وهم فى هذه المهلة مدفوعون إلى أن يستعيدوا حياتهم الأولى كما أنفقوها ؛ فهم يلمون بكل مكان ألموا به حين كانوا يحيون فى حياتهم الدنيا ، وهم يعرضون على ما قدموا من خير وشر ويعرض عليهم ما قدموا من خير وشر ، وهم يمثلون سيرتهم كلها تمثيلا ، فيعملون الخير عالمين بأنه الخير ويجدون لذلك راحة وروحاً ، ويقارفون الشر عالمين بأنه الشر فيجدون لذلك شقاء وبؤساً وعذاباً أليماً .

قال صاحبي : وثق بأننا لا نمثل حياتنا مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، وإنما نمثلها ونمثلها مراراً لا تحصى، حتى يشق علينا ذلك ويضيق بنا أو نضيق به ، وحتى يود كل واحد منا لو صرف عن حياته صرفاً فلم يخرج إليها ولم يخرج منها ، وحتى يقول كل واحد منا فى نفسه ألف مرة ومرة فى كل يوم بل فى كل ساعة: يا ليتنى كنت ترابا .

قال صاحبي : وأنت ترانى الآن فى هذه السفينة أتحدث إليك وأسمع منك ؛ فأصل ذلك أن حياتى التى أنفقتها فى إيطاليا وفى فرنسا وفى أوربا كلها تعرض علىّ وأنا أعرض عليها ؛ فقد كنت فى روما قبل أن ألقاك وأقبلت على چنوا فلقيتك، وما أدرى أأدفع إلى فرنسا فألقاك أم أرد إلى مصر أم أدفع إلى وجه آخر غير فرنسا ومصر من الوجوه التى دفعت إليها فى حياتى الأولى . بل ما أدرى ! لعلى أن أدفع إلى فرنسا وأن أدفع إلى باريس، وأن ألمّ بالأماكن التى ألممت بها وحدى أو مع غيرك من أصحابى ، وأن ألم بالأماكن التى ألممت بها معك، ثم لا يتاح لى مع ذلك أن ألقاك كما ألقاك الآن، وأنا أقول لك وأسمع منك كما أقول لك وأسمع منك الآن ؛ فإن أمورنا فى هذه المهلة

التي أتيحت لنا تجرى على قوانين لا نعقلها ولا نحققها ولا نحيط بها ، كما كانت أمورنا فى حياتنا الأولى على قوانين ليس لنا عليها سلطان . قلت لصاحبي : وتظن أن أمورنا تجرى فى حياتنا الدنيا على قوانين لا سلطان لنا عليها؟ قال : لا أظن ذلك وإنما أقطع به، ولو قد جرت أمورنا على قوانين نعرفها ونألفها لقدمنا من الأعمال غير ما قدمنا، ولتجنبنا من السيرة ما أقبلنا عليه راغبين فيه عاكفين عليه محبين له أشد الحب. أتذكر أنك أنكرت علىّ ذات يوم بعض أمرى دون أن تحدثنى بإنكارك أو تظهرنى على ذات نفسك، وإنما وجدت علىّ وأضمرت الموجدة وأحسست أنا ذلك إحساساً قويا ، ولمت نفسى فيه بعض اللوم ولكنى مضيت لشأنى غير مثقل على نفسى بالعتب ولا ملح عليها فى اللوم .

أتذكر ذلك؟ قلت : نعم ! قال : وتذكر أنك لم تتحدث بموجدتك إلى أحد من الناس؟ وإنما تحدثت بها إلى ما حفظت فى نفسك من ذكرى إخوتى الذين سبقونى إلى الموت ؟ قلت : نعم ! قال : فهل تعلم أن موجدتك تلك تعذبنى عذاباً لا قبل لى به ؟! قلت : فإنى قد أنسيت هذه الموجدة قبل أن تفارقنا . ألا تذكر

أننا التقينا وتصافينا واستعدنا ودنا القديم غضا نضراً كأحسن ما عرفناه؟ قال: بلى! إنك قد أنسيت هذه الموجدة وإن ما استأنفنا من الصفو والعفو قد أراحني من وخز الضمير ، ولكن إخوتي لم ينسوا هذه الموجدة، ولكن الكتاب الذي يسجل علينا أعمالنا ولا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها قد سجل إساءتي إليك فيما سجل . فهل تريد أن تعرف كيف أعذب بإساءتي إليك ووجدك عليّ؟ لا يكاد يمضي وقت طويل حتى أراني أحدث الإساءة إليك بمحضر من إخوتي كلهم، وأراك تأسى لذلك أشد الأسى ، وأرى إخوتي ينظرون إليّ شزراً ثم يتحولون عني معرضين عائفين، ثم يكرهون لقائي وحديثي وقتاً لا أحصيه. وأجد أنا من موجدتك ومن إعراضهم ومن هذه الصورة البشعة التي تعرض عليّ ألماً لا أستطيع أن أصوره ولا أستطيع أن أصبر نفسي عليه. وكذلك أعذب بسيرتي كلها منذ استجبت لظروف الحياة، فآثرت المنفعة العاجلة على المودة القديمة، وأرضيت السياسة على حساب الصداقة والإخاء . قلت : وقد أثر ذلك في نفسي أبلغ الأثر : فهل أملك لك من هذه العاقبة المؤلمة شيئاً؟ قال : نعم! تملك أن تغفر لي وقد فعلت ، وأن تستغفر لي لعل الله أن

يتجاوز لى عما قدمت ، ولعل إخوتى أن يلقونى بغير ما جعلوا يلقوننى به من النبو والإعراض . قلت : لأفعلن ولأدعون أصدقاءك جميعاً أن يفعلوا مثل ما أفعل وأن يستغفروا لك مصبحين وممسين وهذا أيسر مالك عليهم من الحق ؛ فقد بررتهم ورفقت بهم وأحسنت إليهم ، والحسنات يذهبن السيئات ، والمكرمات يمحون الخطايا . قال : وأخرى أحب أن أدعوك إليها وهى ألا تشكو الأحياء حين يسيئون إليك إلى الموتى ؛ فإن للموتى قسوة لا تكاد تحققها ، فهم لا يعرفون رحمة ولا رأفة ولا إشفاقاً . فمهما يسىء الأحياء إليك ، فلا تكلهم إلى الموتى ولا تستعدى عليهم أحداً ، ولكن كلهم إلى عفوك وصفحك ، وكلهم بعد ذلك إلى أنفسهم ؛ فإن لهم ضمائر إن لم تعذبهم الآن فستعذبهم بعد أن يفارقوا الحياة

وارحمتاه للأحياء من عذاب الضمائر حين يموتون !

واهاً لإخوانى قد أفطروا ولم أزل أمعن فى الصوم

قلت فإنى لم أفهم عنك هذا البيت .

قال : ولن تفهمه حتى تصوم كما أصوم ؛ فإن للموتى أحاديث لا يستطيع الأحياء لها تأويلا .

وأريد أن أرد عليه رجع حديثه ، ولكنى أسمع صوتاً عذباً يدعونى

قائلا : واها للذين ينامون وقد استقبلت السفينة ثغر مارسيليا ، فأفيق متكفاً وأنهض متثاقلا وأريد أن أقص على زوجى بعض ما كنت فيه ، ولكنها تسخر منى قائلة : لو انصرفت عن بعض السخف الذى تغرق فيه نفسك أثناء اليقظة لما عرضت لك هذه الأحلام المروعة . يجب أن تكون قد فكرت قبل أن تنام فى تلك القصة التى أثقلت على وعلى الناس بالحديث عنها والتى أجراها صاحبك چان پول سارتر بين الموتى ، كأنه قد فرغ من الأحياء فلم يبق له إلا أن يشغل نفسه بالموتى . أسرع إلى ثيابك ؛ فإنى لم أعدد أمتعتنا بعد ، وما أحب أن نبلغ المرسى ونحن فى غرفتنا هذه . وأسرعت إلى ثيابى طائعاً وأنا أقسم بينى وبين نفسى ما فكرت فى قصة چان پول سارتر منذ ركبت فى السفينة بل منذ أكثر من شهرين .

٤

فالت وفى صوتها حنــان ينم عن كامن التياع
لا يلبث الأصدقاء حتى يدعــوهم للفراق داع

ثم ألقت إليهن نظرة طويلة حزينة وإن كان قلبها يملؤه الفرح والمرح والغبطة لبلوغها أرض وطنها ولأنها ستلقى ابنها بعد يوم وبعض يوم . قالت لى وهى تتنهد تنهداً لم يستطع أن يخلص للحزن : « وددت لو استصحبتهن إلى باريس . ولكن ماذا أصنع بهن أثناء هذا النهار الطويل الذى سننفقه فى مارسيليا متنقلين من قهوة إلى مطعم ومن مطعم إلى قهوة وهن صاديات إلى الماء ؟! قلت متضاحكاً وفى نفسى حزن لا يكاد يبين : نعم ! وماذا تصنعين بهن فى هذا النهار الطويل الذى ستقضينه فى مارسيليا متنقلة بين المتاجر ، لا تلمين بواحد منها إلا لتتركيه إلى غيره ، محبة لذلك مشغوفة به ، لا تشترين وإنما تنظرين وتقدرين لعلك أن تشترى ذات يوم ؟

وكذلك تحول الحديث من جد إلى لعب ، ومن حزن إلى فكاهة ودعابة ، وأضمرت القلوب ما أضمرت لتلك الزهرات النضرات من حب وود وحنان . وكانت تلك الزهرات قد لقيتنا فى محطة القاهرة أرسلها للقائنا ووداعنا ومرافقتنا أثناء السفر صديق كريم علينا حبيب إلينا ، وحملها من مودته وإخائه ووفائه ما لا تستطيع الكلمات أن تؤديه ولا أن تحمله، وما يحسن الزهر أن يحمله ويؤديه فى بلاغة قصد لا يزينها الإطناب ولا يحسنها الإيجاز ولا تستقيم لها المساواة ، وأين هى من ذلك وهى بلاغة لا تؤدى إلى القلوب بالأصوات والكلمات وإنما تؤدى إليها بالجمال النضر البارع والأرج الرائع النفاذ ! ولم تكد هذه الزهرات تلقانا وتسمع فى شيء من السخرية حديث من حملها إلينا وهو يبلغنا تحية مرسله ، وحديثنا نحن ونحن نتقبل التحية شاكرين ونتلقى الزهر كلفين به مرتاحين إليه — أقول لم تكد هذه الزهرات تلقانا ساخرة من كلامنا ومن إعجابنا ومن عبارات التأثر تلك التى يتبادلها الناس، حتى طوت عنا أسرارها طياً وأخفت علينا أخبارها إخفاء . كانت تعلم فى أكبر الظن أن القطار لا يصلح لنجوى الزهر ، لكثرة ما يملأ به

الأنفس والأسماع من الضجيج والعجيج ، ولكثرة ما يعرض للسَّفْر فيه مما يشغل عن النجوى والحديث .

والزهر لا يحسن النجوى إلا حين يهدأ من حوله كل شيء ، وحين يخلو إليك وتخلو إليه ، وحين يفرغ لك وتفرغ له . فلم تحفل بنا إذن تلك الزهرات وإنما انطوت على نفسها انطواء ، والتوت عنا التواء ، وأسرعنا إلى صاحب « البولمان » نلتمس عنده شيئاً من ماء ، فانتظرتنا راضية أو كارهة وصحبتنا بين القطار والسفينة ناعمة أو بائسة واحتملت عبث الأيدى بها حين بلغنا مستقرنا من السفينة ، وأوت إلى الآنية التى صففت فيها تصفيفاً ، ولم تكد تفرغ من الناس ويفرغ الناس منها حتى تحدثت فأحسنت الحديث .

تحدثت إلى قلوبنا وأذواقنا وعواطفنا ، فزينت الود الخالص الذى لا يصدر عن طمع ولا عن خوف ، والذى لا يشوبه رهب أو رغب ، والذى لا تفسده مخادعة أو مصانعة . والذى لا يعرب عن آمال تريد أن تحقق وتخشى أن تخيب ، والذى لا يصور يأساً من غيرك ورجاء فيك ، والذى لا يبتغى عندك نفعاً ولا يتقى منك ضرا ، والذى لا يكدره ما يكدر صلات الناس من

هذا الشر المنكر الذى تخفيه الضمائر وتكتمه القلوب ، وإنما هو الود الصفو العفو الذى يصدر من النفس إلى النفس، ويصل القلب بالقلب ، ويبلغ الضمير رسالة الضمير .

وتحدثت عن هذا الإخاء الذى لا يأتى من قرابة النسب ولا من اشتراك المصالح ولا من تضامن الناس وتعاونهم ليكيد بعضهم لبعض ويمكر بعضهم ببعض ، وإنما يأتى من الأدب حين يتصل بين الناس شعور صفو بالجمال الصفو وطموح رفيع إلى الحق الرفيع .

وتحدثت عن هذه الصلات الحلوة التى تنشأ بين الناس بريئة إلا من حب المعرفة ، نقية إلا من الترفع عن الصغائر والتنزه عما يشين الرجل الكريم . وكانت أحاديثها رقيقة رشيقة لا تؤذى السمع ولا تشق على النفس ولا تشغل عما يعرض للناس وما يعرض الناس له من المنافع والمآرب والحاجات ، وإنما تسعى عبيراً أرجا دقيقا فتبلغ أعماق الضمير فى غير جهد ولا تكلف ، أو تتمثل جمالا رائعاً بارعاً فيه نضرة الندى ورقة النسيم وابتسامة الشمس المشرقة وهدوء الليل المطمئن وخصب الأرض الغنية وغناء الطير الفرح المرح ، فتملأ العيون بهجة وتفعم النفوس غبطة ، وتشيع فى القلوب رضا وأمناً واطمئناناً ، وتقر فى العقول

أن الحياة ليست كلها غدراً ومكراً وكذباً وميناً وخداعاً ونفاقاً وكدراً ورنقاً ، وإنما هى شىء أرق وأنق وأجمل وأكمل من هذا كله ، وهى خليقة أن تحياها ما دامت الطبيعة تستطيع أن تهدى إلى الناس زهرا نضراً يحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم وعذوبة الندى وهدوء الليل وخصب الأرض ، وربما تحدثت إلى النفوس ألواناً من الحديث لا تستطيع لغات الناس أن تصورها لأنها غامضة أغمض من أن تسعها الألفاظ . ولأنها واضحة أوضح من أن تنكرها النفوس ، ولأنها تصور من نجوى الشجر والزهر حين تشملهما ظلمة الليل أو يغمرهما ضوء النهار ، وما يكون من مرح الغصون حين يداعبها النسيم ومن جزعها وفزعها حين تعصف بها الريح ، وتصور مرح الطير حين يسفر الصبح واكتئابها حين يدنو الأصيل ، وتصور ما يكون بين أمواج الأنهار والجداول من مداعبة وملاعبة ومعاتبة ومغاضبة ، وتصور ما تحمل الشمس المشرقة إلى الأرض من تحية وما تضمر الشمس المحرقة على الأرض من موجدة ، وتصور هذه الرسائل الجلية الخفية التى تحملها أشعة الكواكب والنجوم بين الكواكب والنجوم .

تصور هذا كله وأكثر من هذا كله، وتحمله إلى النفس فى أناة مستأنية ورفق رفيق، لا تشق عليك ولا على أنفسها بذلك. وإنما تسعى أحاديثها من قبلها إليك عفواً فى غير مشقة ولا جهد وفى غير تكلف ولا تصنع. وأنت تسمع لها إن شئت وتعرض عنها ان أحببت، وأنت تعقل من أحاديثها ما تتفتح له نفسك وينشرح له صدرك، ثم لا تشقى بما لم تسمع منها أو تفهم عنها من الحديث؛ لأنها لا تدعوك إلى أن تسمع لها ولا تلح عليك فى أن تفهم عنها، وإنما هى قائمة باسمة، تؤدى رسالتها وتلقى أحاديثها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فهى تحمل إلى الإنسان رسالة الإنسان، وهى تحمل إلى الإنسان رسالة الطبيعة، وهى لا تشق على الإنسان حين تبلغه هذه الرسالة أو تلك، وهى تنتظر ناعمة مشيعة النعمة من حولها، حتى إذا سعى إليها الذبول ومشى فيها الذواء استقبلت الفناء راضية كما استقبلت الحياة راضية، وودعتك بآخر ما ترسل من أرجها وآخر ما تنشر من جمالها، فتركت فى نفسك أثراً كالذى تركته فى نفس زوجى وفى نفسى، فيه كثير من حب وكثير من رفق وكثير من حنان، وفيه شىء من اكتئاب وشحوب.

وقد فارقنا زهراتنا فى السفينة وفيها شىء من حياة. صحبتنا أثناء السفر فأحسنت الصحبة ، ولولا الحياء لأ وصينا بها أصحاب السفينة خيراً . وكانت إلمامتنا قصيرة ، وكان سفرنا إلى باريس ميسراً ، وإن عرضت لى فيه خطوب سأعود إليها بعد حين .

وأقمنا فى باريس ما شاء الله أن نقيم ، وعرضنا فيها لما شاء الله أن نعرض له ، وعرض لنا فيها ما شاء الله أن يعرض لنا من الأمر . ثم أزف الترحل عن باريس ، ولم يبق بيننا وبين ركوب القطار إلا ساعات قليلة ، وقد ودعنا فتانا وأبينا عليه أن يصحبنا إلى المحطة ، وألححنا عليه فى أن يفرغ لشأنه ويتزود من الراحة قبل أن يستقبل إمتحانه الشاق العسير .

وينصرف الفتى عنا شجاعاً جلداً ، ولا يكاد يغلق الباب من ورائه حتى تنهل دموع وتشرق حلوق وتتقطع أصوات فى الصدور . ثم يقبل الزائرون يتبع بعضهم بعضاً وقد كدنا نتسلى عن لوعة الوداع ، ولكن طارقاً يطرق الباب فى رفق ، فإذا فتح له سبق العبير صوته ، فنحس بأن الفتى قد أبى أن نفترق على هذا الوداع الأليم ، فاختار زهرات ، وألقى إليها بذات نفسه وأسرّ إليها

أن تحمل حبه وبره إلى أبويه .

وقد عادت الدموع إلى انهلالها وعادت الحلوق إلى شرقها، وعادت الأصوات إلى تقطعها فى الصدور. ولكن جمال الزهرات رد إلى النفوس شيئاً من هدوء ، ولكن عبير الزهرات رد إلى الضمائر كثيراً من أمل ، ولكن نضرة الزهرات ملأت القلوب حبًّا وحناناً .

وكانت هذه الزهرات فصاحاً كل الفصاحة مسمعات كل الإسماع عجلات إلى إلقاء أحاديثها وأداء رسالتها والكشف عن أسرارها . فهى تتحدث إلينا فى غرفة الفندق ،وهى تتحدث الينا فى السيارة بين الفندق والقطار ، وهى تتحدث إلينا فى القطار ما أمسكتنا اليقظة ، وهى تتحدث إلى أحلامنا حين يستأثر بنا النوم . وهى تتحدث إلينا فى چنوا أيقاظاً ونياماً ،وهى تتحدث إلينا فى السفينة بين چنوا ونابولى أيقاظاً ونياماً كذلك . وهى الآن وأنا أملى هذا الحديث تنتظرنا فى غرفتنا بما بقى فيها من حياة تبث أحاديثها إلى جو الغرفة وما فيها من أداة ،حتى إذا اشتملها الذواء تركت من روحها ما يمضى فى التحدث إلينا عن فتاتا حتى نبلغ مصر إن شاء الله .

٤٥

وأشهد إنى لأنحنى عليهن بين حين وحين ، فأشمهن وألثمهن وأنشدهن قول أبى العلاء لحمائمه :

إيه لله دركن فأنتن اللواتى يحسن حفظ الوداد

٥

لم نكد نرقى إلى السفينة بعد أن طوفنا فى چنوا ساعات حتى ذكرنا أننا لم نرسل البرقية التى كنا نزمع إرسالها إلى القنصلية المصرية فى مارسيليا . فقد كنا قدرنا أننا سنصل إلى مارسيليا حين يوشك النهار أن ينتصف ، واستكثرنا أن ننفق فيها سائر النهار وعامة الليل ، ثم ننفق النهار كله بعد ذلك فى القطار ونصل إلى باريس حين يتقدم الليل فنقضى فى فرنسا يومين كاملين لا نرى فيهما الفتى ، وما أشد شوقنا إلى لقائه ! وما أشد حرصنا على ألا نزعجه عما هو فيه من استعداد لامتحانه العسير .

وكنا قد أصدرنا إليه الأمر من القاهرة ألا يخف للقائنا ولا يسعى إلينا إلا حين ندعوه بالتليفون ؛ فليس من شك فى أنه سيسمع ويطيع . وقد تنازعه نفسه إلى لقاء أبويه ، فلنخف عليه مقدمنا إذن ، ولننبئه بمكاننا بعد أن نستقر فى فندقنا . من أجل

ذلك أزمعنا أن نخالف عن عادتنا المألوفة فنسافر إلى باريس فى قطار الليل لا فى قطار النهار كما نحب دائماً أن نفعل .

فليس بد إذن من أن نبرق إلى قنصلنا فى مارسيليا ليتفضل فيحجز لنا أماكننا فى قطار الليل . وقد أنسينا هذه البرقية لكثرة ما عرض لنا من الأمر فى چنوا ، وما ألمّ بنفوسنا وقلوبنا من الخواطر والذكريات . فلما ذكرنا هذه البرقية بعد صعودنا إلى السفينة تقدمنا إلى «فريد» أن يحتال فى إرسالها . فما أسرع ما هبط إلى الأرض ، وما أسرع ما عاد إلينا ينبئنا بأن البرقية ستصل إلى القنصل بعد دقائق لن تبلغ العشرين !

كذلك قدرنا ، ولكن السفينة وظروف السفر قدرت شيئاً آخر ؛ فلم نبلغ الساعة التاسعة من صباح الغد حتى كانت سيارة قد انتهت بنا إلى محطة مارسيليا وفيها عرفنا أن قطاراً سيسافر منها إلى باريس إذا انتصف النهار . فنرسل فريداً إلى القنصل ليعلم لنا علمه ونحن نتمنى فيما بيننا وبين أنفسنا ألا يكون حجز الأماكن فى قطار الليل قد يسر له . ونجلس إلى قهوتنا ننتظر عودة فريد ، وما هى إلا ساعة حتى يعود ومعه القنصل يقسم جهد أيمانه أن الرسالة لم تصل إليه إلا بعد أن

لقيه فريد . وهو يعتذر ما وسعه الاعتذار ، ولا يقدر أن تأخر هذه الرسالة ووصولها بعد مرسليها قد صادف هوى فى نفوسنا وحقق لنا أملا عزيزاً علينا . وما أقل ما تحقق الآمال فى هذه الحياة !

ونحن نجتهد فى أن نحتجز الأماكن فى قطار الظهر ، ندفع إلى المحطة وتد فعنا المحطة إلى كوك . وقد شكرنا للقنصل جهده ورددناه إلى عمله الكثير ومواعيده الخطيرة سالماً موفوراً لم يلق كيداً ولم يكلم كلما .

ثم لا ينتصف النهار حتى نكون قد أخذنا أماكننا فى عربة من عربات «البولمان» من الدرجة الثانية بعد أن ضاقت بنا عربة البولمان فى الدرجة الأولى .

وقد أخذنا من الأماكن ما أتيح لنا ؛ ففرقت مصادفة القطار بيني وبين فريد، وجلست إلى زوجي نتحدث حيناً ونسكت حيناً ولا تتاح لنا القراءة، ثم حمل إلينا غداؤنا ولما فرغنا منه أوينا إلى شيء من راحة. ولكني لا أكاد أخلو إلى نفسي حتى أذكر ما لقيت من ليلتي وما كان بيني وبين صديقي ذلك العزيز من حديث غريب ، وأحاول أن ألتمس لذلك الحديث تأويلا ولكني أصرف عن ذلك

صرفاً رفيقاً عنيفاً فى وقت واحد . فهذا صوت صديقى يبلغ أذنى عذباً رقيقاً يشيع فيه الحنان ، وهأنذا أفزع لذلك أشد الفزع ، وأكاد أتحدث بما أجد إلى زوجى . ولكن يداً رفيقة رقيقة تمس كتفى وصوتاً حلواً نفاذا يقول لى : «لا بأس عليك ما الذى يروعك وأنت حديث عهد بى ! ألم أكن أتحدث إليك منذ ساعات قصار؟» . قلت «بلى ! ولكنه الحلم فيما قدرت ولست الآن نائماً» . قال : «بل هو الحلم فيما قدرت زوجك لا فيما قدرت أنت. ولولا أنك تحدثت إلى زوجك بما تحدثت إليك وأنها قالت لك ما قالت، لأنفقت ما شاء الله من الدهر فى هذه الدنيا لا تشك فى أنى لقيتك وتحدثت إليك وسمعت منك وأنت يقظان، ولأخفيت ذلك على الناس مخافة أن يتهموك بالتكذب أو أن يظنوا بعقلك الظنون . فالآن فسل نفسك أنائم أنت أم يقظ ؟ وتحدث إلى زوجك واسمع منها رجع الحديث ، وضع يدك فى جيبك فداعب بها سبحتك تلك التى أهداها إليك صديقنا فلان . . وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة . ولو قد أتيح للموتى أن يدخنوا لأخذت منك إحدى سجائرك هذه ولشاركتك فى التدخين ولكن أنى للموتى أن يدخنوا ! وإنما هم

ظلال ليست لهم أيد ولا شفاه ولا حلوق . » وأسرعت بيدى إلى جيبي فداعبت سبحتي وأخرجت علبتى وأشعلت سيجارتى وتحدثت إلى زوجى . ولكن يدا رفيقة تمس كتفى وصوتاً حلوا يبلغ أذنى وهو يقول : « أنت إذن يقظ لا نائم، فاسمع منى وافهم عنى ، واعلم أنى أتحدث إلى قلبك وعقلك جميعاً .

أتذكر أثراً طالما تحدثت إليك به ؛ لأنى كثيراً ما سمعته من الشيوخ ؟ قلت : « الأولاد مبخلة مجبنة ؟» . قال : « هو ذاك ! وقد عرفتنى قبل أن أرزق الولد وأحتمل من أعباء الحياة ما يحتمل الآباء، فهل رأيت منى بخلا وجبناً ؟» . قلت : « اللهم كلا ! » . قال : « فإنك لم تنس أنى غاضبت الحكومة فى مستهل الشباب ، وغاضبت السلطان غير مرة بعد ذلك ، ولقيت فى ذلك من لوم الأسرة ما لقيت ، فلم أحفل بلوم ولم ألتفت إلى عتب ، وإنما أديت الواجب كما كنت أعتقد أنه ينبغى أن يؤدى » . قلت : «هذا حق» . قال : «وقد رأيتنى بعد أن رزقت الولد واحتملت من الأعباء ما يحتمل الآباء، فهل رأيت منى بخلاء؟» قلت : « اللهم لا ! » . قال : « فالحمد لله على أن الولد لم يكن لى مبخلة. ولكنك رأيت منى كما رأيت من نفسى جبناً فى غير

موطن من المواطن». قلت : «لم أر جبناً وإنما رأيت تحفظاً واحتياطاً»
قال : «فإن الموتى يحبون أن نسمى الأشياء بأسمائها ؛ فقد رأيت منى
ورأيت أنا من نفسى جبناً فى غير موطن من المواطن وقد
عبرت عنه بهاتين الكلمتين : التحفظ والاحتياط معتذراً عن
نفسي إلى نفسى ومخادعا لها عن الحق ، فلم يغن هذا عنى شيئاً
وإنما استحييت من نفسى ومن الناس . ولو قد أظهرتك أسرتى
على ما كتبت من المذكرات لرأيت من ذلك ما يرضيك .
وإذن فقد كان الولد مجبنة لى ؛ فأنا أستغفر الله وأرجو أن تستغفر
الله لى من هذا الجبن» . قلت : « فقد غفر الله لك لأنك تبت
من هذا الضعف توبة صادقة نصوحا» . قال : «لو غفر الله لى لما
وجدت ما أجد إلى الآن من ألم وندم وعذاب يمزق الضمير».
قلت وقد أسرعت إلى شفتى ابتسامة حاولت أن أخفيها : «يعجبنى
هذا التعبير لتمزيق الضمير » . قال : « ألم أقل لك إن الموتى
يحبون أن تسمى الأشياء بأسمائها ! إنك ترى فى هذا التعبير
مجازاً رائعاً ولكننا نحن نرى فيه حقيقة واقعة . فضمائرنا يمزقها
الندم تمزيقاً ويفرقها الألم اللاذع تفريقاً . والآن وقد تحدثت
إليك عن نفسى أحب أن أتحدث إليك عن نفسك أنت » .

قلت : « وماذا تعلم من أمر نفسى؟» قال : « أعلم أنها كئيب ، أعلم أنها بائسة ، وأعلم أن ألماً لاذعاً يقضها ويمضها ، وأعلم أنك تظهر ما تظهر من إشراق الوجه وابتسام الثغر ورشاقة الحديث ، ثم تنشد إذا خلوت إلى نفسك بيتاً طالما اشتركنا فى الإعجاب به :

وتجلــدى للشامتين أريهمُ أنى لريب الدهر لا أتضعضع »

قلت : « فإنى لا أحب أن يقرأ الناس ما فى نفسى » . قال : «هيهات ! تستطيع أن تخفى ذات نفسك على الأحياء ، فأما الذين يعرفونك ويألفونك من الموتى فليس يخفى عليهم من ذات نفسك شىء » .

وهممت أن أتكلم أو بعبارة أدق هممت أن أرد عليه بعقلى لا بلسانى ، ولكنه مس كتفى مسًّا رفيقاً وقال فى صوت حلو يشيع فيه الأسى : «لو عرف الأحياء أنهم يؤذون الموتى حين يجزعون أو يفزعون أو يراعون لملكوا أنفسهم ولسخروا من آلام الحياة فإنها أهون من أن تؤذى النفوس ، أوتحزن القلوب . ولكننا نراكم جزعين فزعين مروعين لليسير من الأمر ، فنرثى لكم ونشفق عليكم ، ويؤذينا شقاؤكم فى ذوات أنفسكم . ليتكم تعلمون أن للموتى

حسًا دقيقاً وشعوراً رقيقاً وذوقاً مرهفاً وأن الموت لايقطع ما بينهم وبينكم من الصلات إلا بعد وقت لا نعرف أقصير هو أم طويل . ألم تقرأ فى الآثار والأخبار أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه؟» . قلت : « بلى » قال : « فانما يعذب الموتى بحزن أهلهم عليهم لكثرة مايرثون لهم ، ويأسون لما يجدون من حزن. و إن رثاءنا لكم وإشفاقنا عليكم حين تحزنون علينا ليعذبنا أضعاف مايعذبكم ما تجدون من ألم الفراق . ليت الأحياء يعلمون أن الموتى إنما يتركونهم لخير مما هم فيه ، فلا يشيعوهم بهذا الحزن الممض والألم الذى يقض المضاجع وينغص الحياة» . قلت :«فإن الأحياء لا يحزنون على الموتى حين يموتون بمقدار ما يحزنون على أنفسهم لما يجدون من افتراق الشمل وانقطاع الأسباب بينهم وبين من أحبوا » . قال : « ما زلت كما عهدتك مستقصياً متعمقاً غالياً فى التحليل والتعليل ، والأمر مع ذلك أيسر مما تظن . فليكن حزنكم علينا أو على أنفسكم ، فإن هذا الحزن يؤذينا دائماً أشد الإيذاء وأوجعه . ولقد شهدت أسرتى ثم شهدت أصدقائى بعد أن فارقت داركم الدنيا ، ثم رأيت بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ، ثم رأيت اللوعة التى تكتم فى الصدور والحسرة التى تضمر فى القلوب

والدموع التى تمسك فى الجفون ، فما أعرف أنى لقيت قط من الألم أثناء حياتى كلها مثل ما لقيت فى تلك الليلة ثم فى ذلك اليوم من بعدها». قلت : «ولن يؤلمك الحزن المنافق واللوعة الكاذبة والحسرة التى تظهر فى الوجوه دون أن يكون وراءها شيء» . قال : «هيهات ! إن الموتى ليصفحون عن كثير . ولقد تعلمت فى الحياة من الصفح عن المنافقين والإغضاء عما يتكلفون من الرياء والكذب ما أنت فى حاجة إلى أن تتعلمه . ولو قد تعلمته لأرحت نفسك من عناء كثير . إن المنافق إنما يؤذى نفسه أكثر مما يؤذيك . فلو أنصفته لرحمته وأشفقت عليه . أتظن أنه من الهين أن يكذب الإنسان على نفسه فى كل قول يقوله ، وفى كل عمل يعمله ، وفى كل خفقة من خفقات قلبه ، وفى كل خلجة من خلجات نفسه ، يفرح قلبه ووجهه كئيب ، ويحزن قلبه ووجهه مبتهج . يقول ونفسه تنكر ما يقول ويعتقد ولسانه ينكر ما يعتقد . وكل ذلك يكتب له ويحصى عليه ، حتى إذا خلا إلى نفسه مزقه الندم إن كان له ضمير ، فإن لم يكن له ضمير فخلوته إلى نفسه نفاق كما أن لقاءه لغيره نفاق ؛ فهو منافق مع نفسه ، منافق مع الناس ؛ حتى إذا فارق الدنيا عرضت

عليه من نفاقه صور يا لها من صور ! لا تستطيع عقول الأحياء أن تتصورها ، ولا تستطيع قلوبهم أن تصبر لها، ولا تستطيع لغاتهم أن تصفها . وإنى لأرى بعض الأشقياء من الذين أسعدهم النفاق فى حياتهم الأولى فأتمنى لهم عطفاً عليهم وبرًّا بهم أنهم لم يخلقوا .

لاتبتئس إذن لنفاق المنافقين ، ولكن ارحمهم وارث لهم وتمنّ أن يتوب الله عليهم فى حياتهم قبل أن يموتوا فيصبح أملهم فى التوبة أوهن من نسج العنكبوت . ولنعد إليك وإلى هذا البيت الذى تنشده كلما خلوت إلى نفسك حين يلم بك بعض ما تكره من الأمر ، فتظهر الرضا وتضمر السخط وتعلن الابتهاج وتسر الاكتئاب. فهل علمت أن أشمت الناس بالإنسان إنما هى نفسه الخفية التى لا يظهر عليها أحد ، وأن الإنسان خليق أن يتجلد فيما بينه وبين نفسه قبل أن يتجلد فيما بينه وبين الناس؟ وما يعنيك أن يظن الناس بك الظنون ويقولوا فيك الأقاويل إذا عرفت نفسك وعرفتك نفسك ، فلم تنكرها إذا خلوت إليها ، ولم تنكرك إذا خلت إليك ! . إن شماتة نفس المرء به هى أصل الشر ومصدر الداء والطريق إلى كل موبقة من الأمر . إن المكروه يلم بك

فتجزع له وتضيق به وتتكلف للناس صبراً وجلداً ، ولكنك قد ضعفت فى دخيلة ضميرك فلم تخف الجزع على نفسك، وإذا هى تنظر إليك ساخرة ، ثم تنظر إليك مشفقة ، ثم تنظر إليك مضللة ، ثم تنظر إليك محاولة أن تسليك وتلهيك، وإذا هى تلتمس لك المعاذير الكاذبة والتعلات الباطلة لتسليك عما تجد من الحزن ، وتحط عنك ما يثقلك من الإصر . ثم لا تلبث أن تغريك بالتماس التسلية والتلهية لتنسى ألمك وتتخفف من همك، فتفتح لك أبواباً من الشر وتمهد لك طرقاً إلى الإثم . ثم ما تزال تدفعك من باب إلى باب ومن طريق إلى طريق حتى تنسيك ما كان يثقلك من الحزن والألم ولكن بعد أن تكون ورطتك فى آلام وآثام أشد ثقلا وأعظم نكراً مما كنت فيه . ولو قد لقيت المكروه شجاعاً جلداً أمام نفسك ، غير حافل بما يظن الناس وما يقولون وغير خارج عن طورك ولا مغير لسيرتك فيما بينك وبين ضميرك ، لاحتفظت بمروءتك كاملة برجولة موفورة ، ولجنبت ضميرك كثيراً من هذا الدنس الذى لا يليق بكرام الناس » .

قلت : « لقد أصبحت بعدى فيلسوفاً » . قال وهو يبتسم :

« إن الموت يعلم الفلسفة لكثير من الأحياء فما له لا يعلم الفلسفة لقليل من الموتى ! » .

وأقبل فريد ينبئنى بأن فى العربة مكانين خاليين ساعة وبعض ساعة ، وأنه يستطيع أن يقرأ لى بعض ما حمل من الصحف والمجلات ، فأتثاقل . ولكن صديقى يقول لى : « لا بأس ! استمع لما سيقرأ عليك فريد أو لا تستمع له ولكن لا ترده خائباً ؛ فانه يلتمس هذه الفرصة منذ ركبتم القطار . إنه يعرف حرصك على القراءة ، ويريد أن يمنحك منها أكثر ما يستطيع أو أكثر مما تطيق . »

فأنتقل مع فريد وإذا هو ينشر صحفه ومجلاته ويقرأ ما شاء الله أن يقرأ متنقلا بين الأدب والسياسة والفن ، وأنا أمنحه أذنى وأصرف عنه نفسى ؛ فقد مضيت فى أحاديثى مع صديقى لا أكل أنا ولا يمل هو ، وفريد يقرأ ويقرأ . حتى إذا دنا القطار من ليون عدت إلى مكانى . ويسألنى فريد عن بعض ما قرأ لى ، فأبتسم وأقول له فى صوت يكسره الحياء : لقد نمت عنك وعما قرأت أكثر هذا الوقت . وصديقى يشهد ما نمت عن فريد ولا عما قرأ ، وإنما شغلت بحديثه عن فريد وعما قرأ .

وقد اتصل الحديث بيني وبين صديقي فنوناً وألواناً، قليل منها يمكن أن يقال، وأكثرها ينبغي أن ينطوي عليه الضمير .

وأقبل الخادم يحمل إلينا عشاءنا، وأقبلت على طعامي وعلى حديث زوجي غير منصرف مع ذلك عن هذا الصديق العزيز لحظة، وإنما هي الحياة المزدوجة التي أحياها في كثير من الأحيان، أمنح جلسائي نصف نفسي وأمنح نصفها الآخر بجلساء آخرين أعرفهم أنا ولا يعرفهم الناس ، أقول لهم وأسمع منهم وأبادلهم ضروب الحوار والناس يحسبونني معهم قد منحتهم عنايتي كلها كما منحوني عنايتهم كلها . وهل في الحق أن أحداً من الناس يمنح أحداً من الناس عنايته كلها إلا في أقل الأوقات وأشدها ندرة وأقلها تجددا !

ويبلغ القطار باريس آخر الأمر ، وقد هم الليل أن ينتصف ونهض لنهبط إلى الأرض ، وإذا صديقي يقول لي مداعباً : «أتذكر صديقنا ذاك الذي عاد إلى باريس لأول مرة بعد أن أتم الدرس فيها وقضى في مصر عاماً أو عامين، فلما بلغ هذه المحطة لم يكد يطأ أرضها بقدميه حتى انكب عليها فقبلها بشفتيه ؟!» قلت: «يرحمه الله ويرحمك!» . قال : «فإني سألقاه في باريس.

فالأسباب لم تقطع بينه وبين الحياة الدنيا بعد ، وهو يؤثر باريس ميتاً كما كان يؤثرها حيا » .

وزوجى تلح علىّ فى أن أسرع فى الخطو حتى لا نعوق من وراءنا من الناس . ولكن صديقى يقول لى فى صوته الهادئ الحلو : « لا تعجل فليس فى العجلة خير ، انتظر حتى نضرب للقاء موعداً . أتذكر الكلوزيرى دى ليلا ؟ » . قلت : وكيف لا أذكرها ! قال : «أسنلتقى فيها أثناء زيارتك المقبلة لباريس إن شاء الله ، وسيشهدنا الخادم الذى كان يتلقانا معنيا بنا . أتعرف أنه قد مات؟ » قالت زوجى : قد بلغنا السلم، فاستأن حتى أبلغ الأرض وأمنحك يدى . قال صديقى : « موفقاً إن شاء الله فى سفرك وإقامتك » .

وأبلغ الأرض أسعى مع زوجى متثاقلا أقول لها : أليس غريباً أن نكون فى باريس والفتى لا يعلم أين نحن ؟ وتهم أن تجيب ، ولكننا نسمع صوت الفتى مرتعشاً يقول : يا حبيبى . ثم يلقى بنفسه بين أذرع أربع ثم تكون قبل تؤدى كثيراً من المعانى والألسنة معقودة والقلوب واجفة. ثم أقول للفتى ونحن نسعى : كيف عرفت أننا فى هذا القطار ؟ قال سألت عنكما

فى الفندق فأنبئت بمقدمكما ، لا شوقاً إليكما بل رفقاً بكما .
فليس لكما فى الفندق مكان ، وقد احتجز لكما أصحابه غرفة فى
فندق آخر تقضيان فيه الليل ، فاتبعانى أصحبكما إليه .



٦

سنستجيب لهذه الدعوة ما فى ذلك شك . قلت ذلك وأنا أعجب فيما بينى وبين نفسى لهذه الدعوة التى كانت تنتظر فى باريس دون أن يعلم الذين أرسلوها إلينا أننا قادمون إلى باريس . أعجب لذلك بعد أن أنفقت يومين متحدثاً إلى صديقى ذاك الذى فارق الحياة . فلا أكاد أودعه عند سلم القطار حتى أعلم بعد قليل أن جماعة أصدقاء چان زى قد أرسلت إلى الفتى دعوة للأسرة كلها ترجو فيها أن نشهد الحفل الذى سيقام فى السوربون لوداع چان زى . وقد كان چان زى وزيراً للتربية الوطنية فى فرنسا أعواماً متصلة قبل الحرب ، وزار مصر سنة ١٩٣٨ وعرفته فى القاهرة واستقبلته فى الجامعة وكنت عميداً لكلية الآداب . ثم اتصلت بينه وبينى أسباب من المعرفة لا تبلغ الصداقة ، ولكنها على ذلك ليست بتلك المعرفة العابرة التى لا يكترث لها المتعارفون . وقد لقيته فى فرنسا سنة ١٩٣٩

لقاء قصيراً أحسست فيه إلحاحاً فى العناية بى قلما يظهره الساسة الفرنسيون لأجنبى زائر لباريس . ثم كانت الحرب وعدت إلى مصر وشغلت عن چان زى ، وإن كنت قد أعجبت به حين قرأت فى الصحف أنه استقال من الوزارة ليؤدى واجبه الوطنى فى ميدان القتال . وألمت الكارثة بفرنسا وكان الانقلاب السياسى ، فشرد أنصار الجمهورية وقبض على زعمائهم ، وكان من الذين قبض عليهم هذا الوزير الشاب .

ثم انجلت الغمرة عن فرنسا، وعلم الناس أن چان زى قد شقى فى سجنه حتى أوشكت الحرب أن تنتهى . ثم أقبل الجند عليه ذات يوم فأخرجوه من السجن وأنبأوه أن الحرية سترد عليه وأركبوه سيارة ومضوا به، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق قتلوه ومضوا لوجههم لا يلوون على شىء .

ثم أذهب إلى فرنسا سنة ١٩٤٦ فألقى بعض الأصدقاء من الفرنسيين وأعرف منهم أن صلاة ستقام فى معبد من معابد البروتستنت فى باريس احتفالا بذكرى چان زى ، وأن الأسرة والأصدقاء سيقع من أنفسهم موقعاً حسناً أن يرونى فى هذا الحفل ، فقد كان الفقيد يضمر لى مودة وتقديراً . فنشهد

الحفل لا عن مجاملة فحسب ، ولكن عن وفاء فيه كثير من الإعجاب .

ولا يكاد الصيف ينتهى فى ذلك العام حتى تهدى إلى جماعة اصدقاء چان زى كتابه الذى أنشأه فى السجن . فأقرأ كتابا من أروع ما يكتب الكتاب ويقرأ القراء ، فيه مراجعة للنفس ومحاسبة للضمير واستحضار للماضى وأمل فى المستقبل وإيمان بمصير الوطن . وفيه صبر على المكروه واحتمال للخطب وشجاعة على النوائب وثبات على الرأى وإباء للضيم ورفض للترغيب والترهيب واستخفاف بظلم الظالمين واستبداد المستبدين وسخر من غرور المتسلطين وطغيان المتجبرين . وفيه مع هذا كله وفاء للزوج أى وفاء ورحمة للولد أى رحمة وحب للأصدقاء أى حب . وفيه تحليل كأدق ما يكون التحليل لعواطف القلب وخواطر العقل وخلجات النفس وعكوف الضمير على نفسه واتصال الضمير بالضمير . وفيه استعراض لآماله قبل أن يكون وزيراً ولأعماله ، وما أكثر أعماله وأقومها حين كان وزيراً ؛ ونقد لأعمال الذين جاءوا بعده من أعوان العدو وأنصار الاحتلال والدعاة إلى التعاون مع المحتلين ؛ وأحلام عذاب بما سيستأنف من النشاط

حين يوضع عنه الإصر وتحط عنه الأغلال وترد عليه الحرية ويعود إلى أهله ووطنه سالماً موفورا . وفيه وصف أى وصف لظلمة السجن التى تتصل فى الليل والنهار ، والتى لا تحد آفاق الأبصار وحدها ، وإنما تحد آفاق الضمائر والعقول أيضاً ؛ ووصف لما كان ضميره يبذل من حيلة وجهد ليرسل من أعماقه نوراً ضئيلا يبدد هذه الظلمة بعض التبديد . فمن مداعبة للأمل إلى ملاعبة للحلم ، إلى مخادعة للنفس : إلى محاسنة لحراس السجن ، إلى مخاشنة لمدير السجن وممثلى السلطان ، إلى رياضة فى الغرفة الضيقة حين تغلق عليه أبوابها ، إلى رياضة فى الفناء الواسع حين يتاح له السعى فيه ، إلى استثمار لقطعة صغيرة ضيقة من الأرض ينفق الجهد كل الجهد فى حملها على أن تخرج من النبات والبقل ما يتيح لعينه بهجة ولنفسه رضا ويرفه عليه فى حياته المادية بعض الترفيه . وفيه بعد هذا كله ذكر لتطوافه فى الأرض وسياحته فى البلاد. وقد ذكر مصر بين البلاد التى ذكرها ، وذكر بالخير نفراً من المصريين كنت من بينهم ؛ فعرفت أن ما كان بينى وبينه من الصلة لم يكن عابراً ، وأن عنابته بى لم تكن صادرة عن عفو الخاطر . وأثر فى نفسى أشد التأثير أن

يكون لحياتى الضئيلة فى نفسه الكبيرة بعض الأصداء .

وأعود إلى فرنسا من قابل فأدعى إلى حفل يقام فى السوربون لذكراه الثانية ، فأشهد هذا الحفل وأسمع ما شاء الله أن أسمع فيه من أحاديث الساسة والأدباء الفرنسيين وغير الفرنسيين . وقد تعجلت السفر إلى فرنسا هذا العام ولم يكن يخطر لى أن سأكون منه على ميعاد فى هذه الإلمامة القصيرة التى ألممتها بباريس. ولكنى لا أكاد أبلغ باريس حتى أجد هذه الدعوة وحتى أشعر بأن لى مع الأصدقاء الموتى شأناً فى هذا العام . فأسعى إلى الحفل مصبحاً ، وأرى صحن السوربون قد اكتظ بالساسة والأدباء من الفرنسيين ، وأعلم أن جثة چان زى قد أنفقت الليل مع شهداء الجامعة فى مقبرة الكنيسة التى تجاور السوربون . فلما أصبحت أخرجت إلى الأصدقاء والمحبين والمؤمنين بالحرية ومقاومة الظلم والمنكرين لبغى البغاة وطغيان الطغاة تسمع منهم وتقول لهم . وقد سمعت منهم كثيراً وقالت لهم أكثر مما سمعت . تحدث إليها وزير الحربية الوطنية كما يتحدث الناس إلى الناس ، وتحدثت إليها فرنسا كلها بقلوب ممثليها وبالموسيقى كما تتحدث الأم العطوف الرءوم إلى ابنها البر الوفى .

وقد استمع الناس للناس وهم يتحدثون، واستمع الناس لقلوبهم وهي تتحدث ، واستمع الناس لهذا الرفات الضئيل وهو يتحدث إلى القلوب والعقول أبلغ الحديث وأعمقه أثراً . وكان الناس يحتفظون فى أثناء هذا كله بما ينبغى لهم من الوقار والتجمل والاحتشام . ولكن قوماً أقبلوا يحملون النعش ولا يكادون يلمسونه بأيديهم حتى تندفع موسيقى الحرس الجمهورى فتعزف نشيد المقاومة :

« أيها الصديق أتسمع للغربان تطير طيرانها الأسود فوق سهولنا ! أيها الصديق أتسمع هذه الصيحة المكظومة التى يدفعها الوطن وهو يسلك فى الأغلال . . . »

هنالك تخرج النفوس عن أطوارها ، وتتخفف من التجلد والتجمل والاحتشام، وتطلق للدموع حريتها فتنسجم على الوجوه فى غير تردد ولا توقف ، ولا يبقى أحد من شهود الحفل إلا اندست يده فى جيبه ثم خرجت وفيها منديل يكفكف به دموعاً لا تريد أن تكف . وكذلك خرج چان زى من السوربون تودعه القلوب وتشيعه الدموع ، وتختصر موسيقى الحرس الجمهورى أروع اختصار وأبلغه ما يكون من الحديث بين الأموات والأحياء، وما

يكون من الحديث بين الأوطان والمواطنين مهما تختلف العصور والظروف والأطوار .

وأعود إلى الفندق وقد رضيت عن هذا الحزن الذى أغنى قلبي ونقى نفسى ، وعن هذه الدموع التى غسلت ضميرى مما تعلق به من صلاته بالأحياء . وأشعر أنى سأستقبل ما زرت باريس من أجله من العمل « جَذَعَ البصيرة قارح الإقدام » ، كما يقول الشاعر العربى القديم .

٧

ولكن الحياة فى باريس عناء وغناء، لا ينقطع ما تفرض عليك من الجهد ، ولا ما تثير فى نفسك من المتاع . ولست أتحدث عما فى باريس من مشقة مادية أو لهو مادى ؛ فلى والحمد لله صدوف عن هذا اللهو ، ولى والحمد لله من بريحنى من مشقة الحياة المادية . وإنما أتحدث عن العناء والغناء اللذين يتصلان بالقلب والعقل والذوق ، فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى باريس إلى أن تفارقها . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها؛ لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشىء الكثير مما يثير الألم ويذكى اللوعة، ومما تعلق به الآمال وتحيا به القلوب . لا تكاد تنظر فى الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة ويغريك بالعلم ويحثك على الاستقصاء . ودع السياسة لأصحاب السياسة أو ألمم بالسياسة إلماماً رفيقاً لتعرف ما يحدث فى فرنسا وما يحدث فى أقطار الأرض؛ فليس للرجل المثقف عن ذلك غنى .

ولكنك سترى فى الصحيفة التى تنظر فيها ما يدعوك ويغريك ويلح عليك : فهذا نقد لكتاب لا تكاد تنظر فيه حتّى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتاب . وهذا نقد لقصة تمثيلية لا تكاد تنظر فيهِ حتّى تشعر بالحاجة الملحة إلى شهود هذه القصة . وهذا دعاء إلى حفل موسيقى ، وهذا دعاء إلى معرض من معارض الفن ، وهذا عرض لنظرية من نظريات العلم أو لمسألة من مسائل الأدب أو لخصومة من خصومات الفن . وأنت لا تفرغ من صحيفة أو صحيفتين إذا أصبحت حتّى ترى نفسك طائراً بين ما ينبغى أن تقرأ وما ينبغى أن تشهد وما ينبغى أن تسمع وما ينبغى أن ترى . وأنت تستشير وقتك فاذا هو يضيق أشد الضيق بكل ما تحب . فلا بد لك إذن من أن تختار وما أعسر الاختيار ! ولابد لك من أن تلغى وما أشق الالغاء ! وأنت تستشير جيبك فيما ينبغى أن تشترى من الكتب وفيما ينبغى أن تشهد من التمثيل وتسمع من الموسيقى ؛ فإذا هو يقصر عن إسعافك لبلوغ كل ما تحب . فلا بد من أن تختار ولا بد من أن تلغى ، وما أشق الاختيار والإلغاء جميعاً ! . وقد تخادع نفسك فتسجل كل ما تحب فى دفتر من دفاترك تعجل بعضه وتؤجل بعضه

الآخر إلى أن يتاح لك الوقت ويسعفك المال ؛ وتعلق أملك بأن الوقت سيتيح لك ما تشتهي ، وبأن تدبير المال سيبلغك ما تحب . ولكنك لا تكاد تمسي وتنظر فى صحف المساء حتى ينهار ما بنيت وتنقشع آمالك هباء كما تتبدد سحب الصيف؛ فقد أضيفت كتب إلى كتب ، وأضيف تمثيل إلى تمثيل ، وازددت أنت حيرة إلى حيرة وعجز إلى عجز فاستسلمت للقضاء ، وأخذت من لذة المعرفة والذوق ما أتاح لك وقتك ومالك ، وجعلت تخادع نفسك بآمال تعلم حق العلم أنها كاذبة خائنة لا تغنى عنك شيئاً ، ولكنك تتمثل على رغمك قول الشاعر القديم :

* ما أضيق العيش لولا فسحة الأمـــل *

فهذا عناء لا يخلص منه الرجل المستبصر منذ يبلغ باريس إلى أن يفارقها . أمامه متاع كثير أكثر مما يطيق، وهو مع ذلك شره يريد أن يلتهم كل شيء ، فلا يأخذ مما أمامه إلا بمقدار مهما يعظم فهو ضئيل . ولكن هذا المقدار الضئيل يشغل قلبك وعقلك وذوقك، ويتيح لك من اللذة العليا ما يحبب إليك الحياة ويبغضها إليك فى الوقت نفسه : يحبب إليك الحياة لأنه حلو رائع . ويبغض إليك الحياة لأنه يشعرك شعوراً مراً

ممضا؛ لأنك أضيق باعاً وأقصر ذراعاً من أن تبلغ نفسك حاجتها من هذا المتاع النقى الرفيع .

وأنت تقيم فى باريس ما شاء الله أن تقيم مقسّماً بين هذا الفرح والحزن، موزعاً بين هذا الإقدام الذى يبلغ التهور والإحجام الذى يبلغ الجبن . تريد أن تحيط بكل شىء وتقصر عن أن تحيط إلا بالقليل . فأنت فرح محزون ، وأنت راض ساخط ، وأنت باسم عابس ، وأنت مقبل صادف ، وأنت من هذا كله فى عناء ؛ حتى إذا تركت باريس لم تفصل عنها بقلبك كله ولا بعقلك كله، وإنما تركت فيها من قلبك وعقلك شطراً قد تعلق بهذه اللذات المتصلة الرائعة التى فرضت عليك الحياة وظروفها أن تفارقها على كره منك . وأنت مع ذلك قد جمعت فى باريس ما أتيح لك جمعه من الكتب ، لم تستطع أن تقرأه أثناء الإقامة ، فأجلت قراءته إلى وقت السفر وإلى ما بعد السفر حين تؤوب إلى وطنك مسروراً أو محزوناً، فتريد بقراءته سرورك وتتسلى بها عن حزنك . وأنت تقرأ مسافراً ما وسعتك القراءة، فتنعم وتبتئس وتبتهج وتكتئب ؛ حتى إذا بلغت أرض الوطن العزيز لم تكد تستقر حتى يسعى إليك الساعون وتسعى أنت إلى الذين

سعوا إليك ، ويأخذك سخف الحياة اليومية من جميع أقطارك ، وإذا أنت لا تجد الوقت للاستمتاع بما حملت من الكنوز إلا أن تسترقه استراقاً وتختلسه اختلاساً وتشق على نفسك بما تطيق وما لا تطيق.

ومع أنى أعرف هذا كله لكثرة ما ألممت بباريس وما زلت عنها ، فإنى حديث عهد بهذا كله كلما زرت باريس وكلما رجعت إلى مصر . لا أكاد أبلغ باريس حتى أستقصى ما فيها من ألوان المتاع العقلى ، فأسعد وأشقى ، وأجد فى هذا التردد بين السعادة والشقاء لذة توشك أن تكون مرذولة ؛ لأنى أقارف هذا الإثم وأنا أعلم حق العلم أنى أحاول ما لا سبيل إليه ، وأنى أجدد نشاطا قد علمت ألف مرة ومرة أنه لن يغنى عنى شيئاً ولن يعود علىّ إلا بالألم والشقاء .

كل هذا وقد ألغيت أعباء الحياة الاجتماعية فى باريس إلغاء ، فلم أذكر زيارة من يجب أن أزوره ولا استقبال من يجب أن أستقبله ، ولا ضيقى بالزيارة والاستقبال لكثرة ما يفرضان علىّ من الحرمان . وأنا مع ذلك رجل من الناس يجب أن أعيش كما يعيش الناس : يجب أن أزور وأن أزار ، وأن أقول للمزورين والزائرين وأسمع منهم ، وأشاركهم مخلصاً أو غير مخلص فيما

يضطربون فيه من الأمور وفيما يخوضون فيه من الأحاديث .
وقد أعمل الحيلة وأبذل الجهد وأتكلف فنوناً من الخداع حتى أظفر بالساعات أختلسها من الحياة الاجتماعية اختلاساً ، فأترك زوجى تقوم عنى بما تستطيع أن تقوم به، وأتقدم إلى الفندق فى أن يكف عنى الزائرين والسائلين ، وأخلو إلى صاحبى أو إلى هذا الكتاب أو ذاك وهذه المجلة أو تلك فأنسى الدنيا وأهلها وأريح الناس وأستريح منهم ، وأحيا هذه الحياة الممتازة التى أخلص فيها للمعرفة . ولكنى لا ألبث أن أرى هذه الساعات تنقضى مسرعة وقد أصبت فيها بعض ما كنت أتمنى ، وحيل بينى وبين خير ما كنت أتمنى ، وإذا أنا أشبه بمن نعم أثناء النوم بحلم لذيذ ثم انقطع عليه حلمه فجاءة ، فأفاق وفى نفسه على هذا الحلم حسرات . ولم تتح لى هذه الساعات الحلوة فى هذه الرحلة القصيرة إلا مرة واحدة : كان ذلك فى يوم من أيام الأحد بذلت فى صباحه ما شاء الله أن أبذل من سعة الحيلة وبراعة التصرف حتى استخلصت لنفسى نصف النهار .

ثم أسأل صاحبى أفارغ هو لى فيما استخلصت من الوقت ؟ فإذا هو قد رتب أمره على أن يفرغ لنفسه ولبعض أصحابه ، وقد

قدر أنى سأشغل فى هذا اليوم كما تعودت أن أشغل فى أيام الآحاد . ولكنى أتكلف الحيلة حتى على صاحبي ، فأظهر له شيئاً من يسر وأغريه بأن يستمتع بحريته كاملة ، وألق إليه فى شيء من الاستخفاء واللباقة أنى لا أكره أن أخلو إلى نفسى ساعات . ولكنه قد فهم عنى وأظهر الغباء ، وهو يتكلف كما أتكلف ويتخفف من مشاغله كما تخففت من مشاغلى، يكره أن أخلو إلى نفسى كما أكره أنا أخلو إلى نفسى : وماذا عسى أن تصنع وحيداً إن أقبل زائر أو سأل سائل أو تحدث متحدث فى التليفون ؟ فإذا زعمت له أنى سأتقدم إلى الفندق فى إراحتى من الزائرين والسائلين والمتحدثين قال : وماذا تصنع ان عرض لك ما لا تقدر أن يعرض لك أو احتجت إلى بعض الأمر؟ ثم ينتهى هذا الحوار إلى أن يعرض علىّ صاحبي أن يبقى منى غير بعيد يخلو إلى نفسه كما أخلو إلى نفسى ، فإذا احتجت إليه دعوته . وهنالك يستبين له ولى كل شيء ، يفهم عنى وأفهم عنه فى هذه الصراحة الصامتة التى لا تحب أن تعلن نفسها باللفظ . ولا نكاد نفرغ من الغداء حتى أرانا قد خلونا إلى أنفسنا : صاحبي وكتابه أو مجلته وأنا .

وكذلك رأيتنا فى ذلك اليوم وقد خلونا إلى مجلة من المجلات منذ انتصفت الساعة الثالثة إلى أن تقضت الساعة الثامنة ، لم نتركها حتى كدنا نأتى على كل ما فيها. ولكن الحياة الاجتماعية أقبلت علينا مع تمام الساعة الثامنة ، فانصرفنا عن هذه المجلة ولم نعد إليها على كثرة ما فكرنا فى العودة إليها . وأكبر الظن أننا لن نعود إليها ؛ فقد ظهرت مجلات أخرى ليست أقل منها خصباً ولا إمتاعاً ، وسيشغلنا ما يقبل عما يمضى . وكذلك الحياة : ساعات تقبل بما فيها من الأحداث فتشغل عن ساعات تمضى بما فيها من الأحداث ، وتبقى فى النفس من هذه وتلك أطراف تثير فيها كثيراً من حزن وقليلا من سرور .

٨

ولم ألمم بباريس فى هذه المرة مستمتعاً بها أو ملتمساً لما يلتمس فيها من الراحة واللذة والفراغ ، وانما أقبلت عليها لبعض العمل . وكان هذا العمل متصلا شاقا يستغرق كثيراً من الوقت فى الصباح والمساء ، كما كان الغدو إليه والرواح عنه يستغرقان كثيراً من الوقت . فكنت على هذه السن المتقدمة أشبه بالتلميذ الذى يغدو على مدرسته مصبحاً وينصرف عنها بعد أن ينتصف النهار، ثم يعود إليها بعد الغداء لينصرف عنها إذا أقبل الليل . وكان رئيس اللجنة التى كنت أعمل فيها دقيقاً متحرجاً ، يدبر أمر زملائه وعملهم كما يدبر الأستاذ أمر تلاميذه وعملهم . فكان يحرص على أن يبدأ العمل فى الموعد المضروب لبدئه وعلى أن ينتهى فى الموعد المضروب لانتهائه . ولو كان فى مصر لاتخذ لبدء العمل وانتهائه جرسا ينبه إلى البدء والانتهاء . وقد أضيف هذا العمل المعقد المتصل إلى أعباء الحياة الاجتماعية فى باريس

وإلى مشقة الانتقال وعسر الظفر بالسيارات حين نحتاج إليها ، فلم يترك لى من الفراغ ما يتيح لى قراءة الصحف واستقصاء ما فيها من الدراسات والبحوث ، ولكنى مع ذلك لم أفقد الوسيلة إلى العلم ببعض ما يصدر من الكتب والتقدم إلى صاحبى فى شرائه لعلنا نستطيع أن نقرأه فى يوم من الأيام . ولم أعدم الوسيلة إلى شهود بعض التمثيل أستريح إليه من جهد النهار .

وشهود التمثيل فى باريس ظاهرة من الظواهر الخاصة التى لا تكاد تلاحظ فى غيرها من المدن الكبرى ؛ فليس يكفى أن تشتاق إلى أن تشهد هذه القصة أو تلك فى هذا الملعب أو ذاك لتظفر بما تريد. وإنما أنت مضطر إلى أن تحتال وتحتاط وتحسن السعى حتى تشهد ما تريد أن تشهد من القصص . فالملاعب فى باريس كثيرة جدا مختلفة جدا متمايزة فى مذاهبها وأغراضها وألوان ما تعرض على النظارة من القصص ،ولكنها على ذلك كله مكتظة دائماً، يستبق الناس إلى احتجاز أماكنهم فيها كما يستبقون إلى احتجاز أماكنهم فى القطارات والسفن والطائرات . ولعلهم أن يجدوا من المشقة فى استباقهم إلى شهود التمثيل أكثر مما يجدون من المشقة فى استباقهم إلى وسائل الانتقال .

وأعرف جماعة من المقيمين فى باريس من الأجانب والفرنسيين كانوا يحسدوننا أشد الحسد ؛ لأننا شهدنا قصة تمثيلية من قصص موليير ، وحاولوا هم أن يشهدوها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا . فأما نحن فقد شهدناها فى مصر ؛ لأن فرقة جوڤيه حملتها إلينا وعرضتها علينا فيما عرضت من مسرحياتها فى الأوبرا والباريسيون نظارة كلهم ، قد أصبح شهود التمثيل جزءاً مقوماً لطبيعتهم ، حتى أصبحوا وكأنهم يرون الحياة كلها مسرحية تعرض عليهم حين يصبحون وحين يمسون وحين يغدون وحين يروحون . وأيسر شىء يحدث فى شارع من الشوارع أو زقاق من الأزقة يدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراف ، ثم إلى تبادل الرأى وتجاذب الأحاديث وإرسال النكت كأنهم فى ملعب من ملاعب التمثيل . وقد أصبح من طبيعة الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة إذا التقوا وفرغوا من الحديث عن الجو ، أن يستأنفوا الحديث عما شهدوا فى ملاعب التمثيل أو دور السينما ، وأن ينقدوا اللاعبين واللاعبات نقداً مفصلا لا آخر له ، يتناول فنهم وسنهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الأحاديث التى لا تنقضى .

على أن هناك قصصا تمثيلية تثير ألواناً من النقد لها خطرها، بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون فى السياسة، وبعضها يتصل بالأدب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم من الناس، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً . وقد شهدت قصتين مثيرتين للخصومة السياسية : إحداهما تعرض فى بيت موليير وقد أنشئت حين تقدم القرن الماضى قليلا بعد أن انهزمت الثورة وانهارت الإمبراطورية وعاد إلى فرنسا نظامها الملكى مع شىء من التطور ، وعنوانها «الإسبانيون فى الدانمرك» . وهى قصة متقنة للكاتب الفرنسى الكبير ميريمه ، يعرض فيها مقاومة الإسبانيين خارج وطنهم لنابليون . وتمثيلها رائع ما فى ذلك شك . ولذلك يعجب به الناس على اختلاف ألوانهم السياسية ، ولكنهم بعد ذلك يختصمون اختصاماً شديداً فى هذه القصة التى عمرت قرناً وربع قرن : يرى بعضهم وهم المعتدلون أن بيت موليير قد أخطأه الذوق أو قد أخطأ هو الذوق حين عرض هذه القصة؛ لأنها تصور انهزام الفرنسيين وشماتة الأوربيين بفرنسا . ويرى الشيوعيون ومن لف لفهم من المتطرفين أن بيت موليير قد وفق التوفيق كله حين عرض هذه القصة فى هذه الأيام؛ لأنها تصور

انهزام الاستبداد وإخفاق العدوان وانتصار الحرية . وهم فيما يقولون يكرهون الظلم والاستبداد وإن كانت فرنسا هى الظالمة المستبدة ، ويحبون الحرية والاستقلال وان كانت هذه الحرية وهذا الاستقلال خصما لفرنسا ؛ فهم يؤثرون الحرية على الوطن . وربما احتاط بعض كتابهم فلم يتردد فى أن يعلن أن فرنسا بريئة من الظالمين والمستبدين ، وأنها لم تستجب لنابليون راضية وإنما أذعنت له كارهة ، وأنها ابتهجت بسقوط نابوليون ولكنها لم ترض عما كان بعد سقوطه من استبداد ، وهى على كل حال لم تحالف قط مترلنك وشركاءه فى الحلف المقدس من أصحاب الرجعية . يغمزون بذلك حكومتهم التى تشارك فى حلف مقدس جديد قوامه الإنجليز والأمريكيون . وأنت تقرأ هذه الخصومة فى الصحف وتسمعها فى الأندية والمجالس الخاصة ، وتعجب لهذه الحياة العقلية التى يتصل فيها الفن بحياة الناس فى كل يوم .

أما القصة الثانية فالخصومة فيها أدنى إلى الصراحة وأشد إمعاناً فى العنف ؛ لأنها تتصل بالحياة التى يحياها الفرنسيون فى هذه الأيام ، وهى قصة «الأيدى القذرة» للكاتب الفرنسى المعروف چان پول سارتر . وكل ما يكتبه چان پول سارتر موضوع

للخصومة منذ وضعت الحرب أوزارها . كان الناس يختصمون فى فلسفته الوجودية، ثم اختصموا فى آرائه الأدبية، ثم هم الآن يختصمون فى آرائه السياسية منذ أعلن حربه الصريحة على فلسفة الشيوعيين وسياستهم . وهذه القصة نفسها ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه الحرب ؛ فهى تصور فتى من أبناء الأغنياء قد ضاق بالغنى ومايفرضه على أصحابه من هذه الحياة الفارغة التى لا تغنى عن أصحابها شيئاً، فانضم إلى الحزب الشيوعى ، وهجر أسرته وثروته وبيئته، واندفع فى تحمسه للحزب حتى شارك فى نشاطه كله، وأصبح فدائيا مستعدا لتنفيذ ما يصدر إليه الحزب من أمر ، لا يجادل فى ذلك ولا يفكر فى الجدال ؛ لأنه وهب حريته وحياته للحزب لا ينتظر على ذلك أجراً ولا يريد جزاء . والحزب يأمره باقتراف جريمة القتل على رئيس من رؤسائه؛ لأنه يصانع الظروف ويجرى مع ما تقتضيه السياسة فيحاول الائتلاف مع أحزاب المعتدلين . والفتى يتردد فى اقتراف الإثم ويطيل التردد حتى يوشك الحزب أن يشك فيه ، ولكنه يرى من الرئيس الذى قضى عليه الموت ما يريبه مع زوجته الفتاة، فيقترف الإثم ويرسل إلى السجن. ويشك الحزب فى أنه قتله سياسة أو غيرة . ثم يطلق

سراح الفتى ويعود إلى حزبه، فإذا الحزب يريد أن يتخلص منه، وإذا فتاة من أعضاء الحزب تحاول الإبقاء عليه لعله أن ينفع الحزب فى بعض أمره . ولكن الفتى يستكشف تغيراً فى سياسة الحزب فهو يستجيب للظروف ويجارى ما تقتضيه السياسة ويحاول أن يأتلف مع أحزاب المعتدلين كما كان الرئيس المقتول يريد أن يفعل ، وإذن ففيم قضى الموت على هذا الرئيس ؟ وقد استيأس الفتى فهو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته الأولى ، وهو لا يستطيع أن يجارى الحزب فى سياسته المرنة، وهو لا يعلم لماذا اقترف الإثم، وهو لا يفهم للحياة معنى . وهو من أجل ذلك يعرض نفسه لما يدبر له من الموت .

والقصة بعد ذلك تفصل المشكلات السياسية تفصيلا وتعرض كثيراً من ألوان الخصومة بين المتطرفين والمعتدلين . فليس غريباً أن يختلف حكم الفرنسيين عليها اختلافاً شديداً . فالشيوعيون وأنصارهم ينكرونها، والمعتدلون وأشياعهم يعرفونها، ولكن أولئك وهؤلاء يشهدونها على كل حال . فريق يشهدها معجباً بها، وفريق يشهدها ساخطاً عليها . والفريقان يختصمان فى الصحف ويختصمان فى الأحاديث . والأجنبى يرى هذا كله فيحمد الحرية

ويطمح إليها ويسأل نفسه : أيمكن أن يمثل مثل هذه القصة فى بلد خاضع للنظام الشيوعى ؟ أيمكن أن تمثل قصة تخاصم الفاشية والنازية فى بلد خاضع للنظام الدكتاتورى؟ ثم يحمد الديمقراطية الصحيحة التى تكفل للأفراد والجماعات من الحرية ما يتيح لهم أن يعتقدوا ويعلنوا ما يعتقدون فى غير مضارّة ولا تعرض لتحكم السلطان ، ويود لو أتيح لهذه الديمقراطية السمحة الحرة من سعة الأفق وإيثار الخير ما يمكنها من تحقيق العدل الاجتماعى إلى جانب الحرية . فالمشكلة التى شقيت بها الإنسانية وما زالت تشقى بها وستشقى بها فيما يظهر زمناً طويلا ، هى تحقيق التوفيق بين الحرية والمساواة دون أن يضحى بإحداهما فى سبيل الأخرى . والشيء المهم هو أن إقبال الفرنسيين والباريسيين منهم خاصة على شهود التمثيل والسينما وما يعرض فى الملاهى من أنواع الرقص والغناء والموسيقى ، ينشىء لهم جواً حرا سمحاً طلقاً يتيح لهم أن يرتفعوا عن كثير من الصغائر ، وأن يتنزهوا عن كثير من النقائص ، وأن يستمتعوا بمزاج معتدل يعصمهم من الشطط فى تقدير الأشياء والحكم عليها ، ويحول بينهم وبين هذا الفراغ الذى يورث الأثرة ويدفع إلى الغرور ويورط فى كثير من

الرذائل والآثام . فالرجل الذى يعمل وجه النهار ليرضى حاجته إلى العمل ، ويقرأ آخر النهار وكلما يسرت له القراءة ليرضى حاجته إلى المعرفة ، ويشهد التمثيل ومعارض الفن ويسمع للغناء والموسيقى ليرفه على نفسه ويرضى ذوقه — هذا الرجل خليق ألا يفرغ لنفسه هذا الفراغ المنكر ، وألا يؤثر نفسه هذا الإيثار البغيض وألا يهدر حق غيره كما لا يحب أن يهدر أحد حقه ، وأن يكون رأيه فى الناس وفى الحياة معتدلا مستقيما غير ذى عوج ولا التواء . وكل ذلك ينشىء بيئة سمحة قوامها الأدب والمجاملة وحسن العشرة وكرم المخالطة .

وقد تثار الخصومات الكثيرة فى هذه الحياة . فالناس يختصمون دائماً تفرض منافعهم عليهم هذا الاختصام، ولكنه اختصام لا يفسد الحياة ، ولا ينغص العيش ولا يدفع إلى المكر ، ولا يغرى بالكيد ، ولا يغير صداقة الأصدقاء ، ولا يجعل بعض المواطنين لبعض عدواً . وما أكثر ما يختصم المختصمون فى مثل هذه البيئة أشد الاختصام وأعنفه فى الصحف أو فى البرلمان أوفى غير الصحف والبرلمان من وجوه النشاط ! ولكنهم على ذلك يلتقون وقد ألقوا عن أنفسهم ثقل الخصومة حين ألقوا عن أنفسهم

ثقل العمل ، وخلصت قلوبهم وعقولهم وضمائرهم لما يكون بين المثقفين حين يستقبلون مشهداً من مشاهد الفن أو موضوعاً من موضوعات الأدب أو خاطراً من خواطر الفلسفة . والشيء الذى لم أفهمه قط ولم أسغه قط ، هو أن الذين ينهضون بالأمور العامة عندنا قد ذهب أكثرهم إلى أوربا وعرفوا من حياتها ما أعرف ؛ فليست هذه الحياة مقصورة على فرنسا وإنما هى شيء شائع فى البلاد المتحضرة الراقية ، وهم يعجبون بهذا الذى أعجب به ويتحدثون عنه فيطيلون الحديث ، ولكنهم حين يفرغون لما يفرغون له من الأعمال العامة ينسون ما رأوا وينسون ما يجدون من الإعجاب والرضا ، ويستقبلون نشاطهم بشخصيات أخرى حظها من الحضارة المترفة المثقفة قليل ضئيل ؛ فهم يختصمون كما كان الناس يختصمون فى بعض البيئات القديمة ، لا يرعون فى خصومتهم رفقاً ولا أناة ولا ذوقاً ولا وقاراً ، وإنما هو العنف والإمعان فى العنف حتى يصلوا إلى أبعد غاياته مهما تكن النتائج ، يخلطون أنفسهم بأعمالهم وأعبائهم ، ويسرفون فى الإيمان بأنفسهم حتى يقدروا أنهم إذا نهضوا بالسياسة وأعبائها فإنما ينهضون بأمورهم الخاصة لا بأمور غيرهم من الناس .

ولست أعرف أشد غروراً ولا أعظم إمعاناً فى الحمق من رجل يعيش فى العصر الحديث ويمارس الأعمال العامة على النحو الحديث ثم لا يفرق بين شخصه وبين أعماله العامة، ولا يقدر أنه حين ينهض بالمنصب أو يمارس السياسة ليس إلا وكيلا للشعب ينوب عنه فى تدبير بعض أمره نيابة موقوتة قد تقصر وقد تطول ولكنها موقوتة على كل حال . ولو قد فكر الناهضون بالأعمال العامة هذا النحو من التفكير لأراحوا أنفسهم ولأراحوا الناس من شر كثير وعناء ثقيل . ولكن يظهر أن الحضارة لا تكتسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب، وإنما هى ثقافة يجب أن تتثقف بها النفوس وأن تتغلغل فى أعماق الضمائر، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون . وأكاد أعتقد أن الحضارة والثقافة فى بيئتنا الحديثة ما زالتا أشبه شيء بالطلاء الذى لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو، ولا يكاد يمتحن حتى يذوب ويتكشف عما وراءه من هذه النفوس القديمة التى لم تهذب تهذيباً أصيلا، وإنما هذبت تهذيباً متكلفاً طارئاً لا يقدر على مقاومة المنافع والآراب والأحداث .

ولم أشهد فى باريس هذا اللون من جد التمثيل وحده ، وإنما شهدت لوناً آخر من هزل التمثيل ، فضحكت مع الناس حين كنت فى الملعب ، وضحكت وحدى حين خلوت إلى نفسى ، وما زلت أضحك بين حين وحين كلما ذكرت هذه القصة ، وكثيراً ما أذكرها فى مصر .

وما أريد أن ألخص القصة ، فلست أملى فصلا فى النقد ، وإنما أريد أن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن هذه الحياة السمحة التى يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً أصيلا ، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق والإسماح والبراءة من التحرج والتزمت والتضييق على النفس وعلى الناس . فالقصة التى شهدتها تعرض على النظارة مجلساً من مجالس القضاء يحاكم فيه برىء قد اتهم بأنه قتل زوجه ليخلص لحب خليلته . وخليلته متهمة بأنها قد شاركته فى بعض هذا الإثم . وقد جلس القضاة وجلس المحلفون وجلست النيابة والمحاماة ، وجعل رئيس المحكمة يدعو الشهود ويسألهم ويحاورهم ويخلى بينهم وبين حوار الاتهام والدفاع . وليس لصاحب القصة من هذا كله أرب إلا أن يرفه على النظارة بإضحاكهم من بعض المظاهر الفكاهية

التى لا يخلو منها مجلس من مجالس القضاء . فالرئيس الشيخ ذكى لبق ماكر ماهر ، ولكن الشيخوخة قد اشتطت عليه ، وظهر أثر ذلك فى كلامه حين ينطق وفى ملاحظاته حين يلاحظ على الاتهام والدفاع ، وفى حواره للشهود فى شىء من السأم والاستخفاف من ورائه الجد كل الجد . والنيابة مندفعة فى تكديس التهم بعضها فوق بعض . والمحاماة مندفعة فى تزييف هذه التهم بما يساغ وما لا يساغ . والشهود مختلطون فيهم كثير من الخوف وكثير من الجهل وكثير من الدعابة مع ذلك . والنظارة يضحكون من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . حتى إذا أقبلت أم المتهمة وزعمت للمحكمة أن خليل ابنتها ليس وفيا لخليلته ، وأنها رأته يداعب فتاة أخرى ، ثارت الغيرة بين العاشقين ، وحاول الرئيس أن يرد الأمر إلى الهدوء فلم يزده إلا اضطرابا واختلاطا ، حتى صار من العسير أن تمضى المحكمة فى المحاكمة ، وصار من العسير أن يمضى الممثلون فى التمثيل ؛ فقد اختلط الأمر على المحكمة ، وأغرق النظارة فى الضحك ، حتى لم يبق بد من رفع الجلسة وإرخاء الستار .

فهذا فصل من فصول هذه القصة يضحك النظارة فيه من

القضاء دون أن يكون فى ذلك غض من قدر القضاء أو استخفاف به ، ودون أن يجد القضاء فى ذلك حرجاً أو جناحاً . وليس من شك فى أن كثيراً من القضاة على اختلاف درجاتهم ومنازلهم قد شهدوا وما زالوا يشهدون هذه القصة التى لا تزال تمثل فيما أعتقد ، ويضحكون كما يضحك غيرهم من الناس ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا ينكرون على الكاتب والممثلين أنهم يسخرون من القضاء على هذا النحو البرىء .

فأين نحن من هذه الحرية السمحة ؟ وكيف لو عرض كاتب ومثلت فرقة مجلساً من مجالس القضاء غالياً فى الدعابة والفكاهة كما يقتضى الفن وكما تقتضى حاجة النظارة إلى التسلية عن أنفسهم ؟ ألا تزلزل الأرض بالكاتب والممثلين جميعاً ؟! ومع ذلك فهذا أيسر ما يشهد الناس من الأمر فى باريس . فرجال السلطات الثلاث عرضة للفكاهة المتصلة والتندر الذى لا ينقضى ، لا يسلم من ذلك شيخ ولا نائب ولا وزير ، بل لا يسلم من ذلك رؤساء الجمهورية أنفسهم . فأما أساتذة الجامعات وكبار رجال التعليم فالتندر بهم مألوف . ولم لا وهم يتندرون بأنفسهم وطلابهم ، وتلاميذهم يتندرون بهم فى الغيب والشهادة ، لا يجدون

فى ذلك بأساً ، ولا يضيق بذلك منهم صدر أستاذ أو مدير . فأين نحن من هذا كله ؟ وكيف لو تندر أصحاب المزاح بوزرائنا وساستنا وأساتذتنا؟! والغريب من الأمر ، بل الطبيعى من الأمر ، أن تندر المتندرين وتفكه المتفكهين وعبث الناس بالذين ينهضون بالأعباء العامة ، لا يغض من هيبة السلطان ولا يعرض الساسة والقادة والزعماء إلا للحب والتقدير ما استحقوا الحب والتقدير . والأصل فى هذا كله أن لكل لون من ألوان العمل الإنسانى ناحيته الجادة وناحيته الهازلة ، وأن الشعب فى البلاد الحرة يرى أن الحياة العامة ملك له هو لا للساسة ولا للقادة. وما دام الواجب الوطنى المدنى يقضى عليه أن يحتمل جد الحياة العامة ويشقى بهذا الجد أحياناً فى نفسه وماله ، فإن الحق الوطنى المدنى يبيح له أن ينعم بما فى حياته العامة من خير ، ويلهو بما فى هذه الحياة العامة من فكاهة أو دعابة أو مزاح . والمهم هو أن حياة الشعب ملك للشعب ، يبتئس بها حين تفرض عليه الابتئاس ، ويبتهج بها حين تتيح له الابتهاج ، ويضحك منها حين تثير فى نفسه الضحك . وليس للناهضين بأعباء هذه الحياة أن ينكروا ذلك أو يضيقوا به ؛ فهم حين يقبلون النهوض بأعبائهم

لا يشترطون على الشعب ألا يضحك منهم حين تدعو سيرتهم للضحك ، وألا يتندر بهم حين تدعو سيرتهم للتندر . وكما أن الكاتب والشاعر والفيلسوف والعالم لا يشترطون على قرائهم قبل أن يقدموا إليهم آثارهم أن يعفوهم من النقد ، فالساسة والقادة والموظفون لا يشترطون على الناس قبل النهوض بأعمالهم أن يعفوهم من النقد سواء كان هذا النقد مرا أم حلواً وجداً أم مزاحاً . كذلك يحيا الناس فى البيئات التى استقرت فيها الحضارة حتى ثبتت أصولها فى أعماق النفوس . فأما البيئات التى تجتلب الحضارة اجتلاباً وتشتريها بالدراهم والدنانير وتتزين بها فى الشوارع لتتخفف منها فى الدور ، فهى بيئات لا تحتمل دعابة ولا فكاهة ولا مزاحاً ، وإنما هى متحفظة متحرجة متزمتة ، لا تفرق من شىء كما تفرق من النقد ، ولا تفزع من شىء كما تفزع من الدعابة ، وهى تكلف القوانين من حمايتها ما تطيق وما لا تطيق ، فإن لم تسعفها القوانين التمست حمايتها فى التحكم والظلم والاستبداد .

٩

سيدى العزيز :

فرغت الآن من قراءة كتابك الذى حمل إلىّ مع طعام الإفطار والذى قطع الطريق بين القاهرة وباريس فى أقل من يومين ؛ فقد يظهر أنك أسلمته إلى البريد قبل أن تطير الطائرة بوقت قصير جدا . وقد طارت الطائرة أثناء الليل ووصلت مصبحة ، ولم يستأن سعاة البريد بكتابك ، فأقبل يسعى نشيطاً مرحاً كأنما يباهى بهذه السرعة التى جاب بها آفاق السماء . وقد تلقيته لا مرحاً ولا نشيطاً ، فلم يبعد عهدى بمصر بعد ، ولم أحس الشوق إلى ما ترسل إلىّ من الكتب و الرسائل . وأكاد أقول إنى ما زلت مثقلا بما كنت أحمل فيها من الأعباء لم أتخفف منه إلى الآن . وكيف أتخفف منه فى هذه الأيام القليلة التى أنفقتها منذ تركت الإسكندرية ، وأنت تعلم أن حياة يوم واحد فى مصر تعدل حياة أيام كثيرة فى فرنسا ؛ لا لأننا نعمل فى مصر

ونغنى أكثر مما نعمل ونغنى فى فرنسا ، بل لأننا لا نعمل شيئاً شيئاً أو لا نكاد نعمل شيئاً ، وأن ما يصدر عنا من الحركة والنشاط ليس بذى غناء . وليس شىء أثقل من الحياة الفارغة ، وليس شىء أخف من الحياة المليئة . والحياة الفارغة عندى هى التى يستقبل فيها الإنسان الصبح المشرق والليل المظلم دون أن يضيف إلى علمه علماً وإلى معرفته معرفة ، ودون أن يحدث من الآثار ما ينفعه وينفع الناس . فإذا أضفت إلى هذا الفراغ الذى يملأ حياتنا فى مصر — إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً — هذا السخف الكثير المختلف المختلط الذى يملأ يومنا وليلنا أيقاظاً ونياماً . عرفت أنى لست غالياً ولا متكلفاً حين أقول إنى لم أتخفف بعد من ثقل الحياة المصرية ، ولم أشتق بعد إلى رسائلكم وكتبكم . وصفنى بما شئت من الغلظة والجفوة ، وقل فىّ ما أحببت من قسوة القلب والنبو عن الذوق ؛ فإنى أحدثك بذات نفسى ؛ لأنى تعودت أن أحدثك بذات نفسى لا ألتوى عنك بما أجد فى أعماق الضمير . فقد تلقيت كتابك إذن معرضاً عنه ، وقرأته لا أقول ضيقاً به ، ولكنى أقول إنى قرأته فى فتور . ثم سألت نفسى أأكتب إليك أم أطوى عن الكتابة كشحاً ، كما يقول الجاحظ . ثم أقبلت على الكتابة

إليك فاتراً كما أقبلت على قراءة كتابك غير نشيط . وأنت تعتب علىّ بأنى لم أوذنك بيوم السفر وساعته لتسعى إلى لقائى وتخف لوداعى ، وتسألنى لماذا طويت عنك موعد السفر . يا عجبا كل العجب ! فهل تذكر أنى أنبأتك قط بإزماع السفر حين كنت أزمع السفر؟ وهل تذكر أنى أنبأتك قط بيوم السفر وساعته ؟ أما أنا فأذكر أنى كنت ألقاك فيما مضى مصبحاً وممسياً وأسمع حديثك فى التليفون بين ذلك ، لا تثقل علىّ زيارتك ولا يثقل عليك لقائى ، ولا يضيق أحد منا بحديث صاحبه مهما يتصل ، ولا يحتمل أحد منا سكوت صاحبه مهما يقصر . وكنت تعلم من أمرى كله مثل ما أعلم ، وكنت تعلم من بعض أمرى أكثر مما أعلم ؛ فأنت متصل بالناس تسمع ما يقولون عنى وما يقولون فىّ ، وأنا منقطع عن الناس لا أكاد أعرف من أمرهم إلا ما يحمل إلىّ فى دارى التى لا أتركها إلا قليلا . وكنت أنت صلة بينى وبين الناس تحمل إلىّ أنباءهم ، وتحمل إلى بعضهم أنبائى . ثم أقبلت أيام أسفر فيها الصبح وغشى فيها الليل و لم ألقك فى ليل ولا فى نهار . وقد أنكرت منك ذلك أول الأمر فسألت عنك لأنى خشيت أن يكون بعض المكروه قد أقعدك عنى ، فعلمت

منك أنك موفور لا بأس بك ولا بأس عليك، وإنما شغلت ببعض ما يشغل به الناس . وانتظرت أن تنجلى عنك هذه الغمرة الطارئة، ولكنها لم تنجل، وإنما تكاثفت وتتابعت وركب بعضها بعضاً، وإذا اليوم يمضى وفى أثره اليوم وفى أثرهما الأيام لا ألقاك ولا ألقى من يلقاك، ولا أعرف من أمرك ولا أسمع من نبئك شيئاً . هنالك علمت أنها القطيعة، ثم علمت أنه الانحراف الذى تدفع إليه ظروف الحياة بعض الناس أحياناً . فصبرت نفسى على ما تعودت أن أصبرها عليه من قطيعة الأصدقاء وانحراف الأخلاء ونضوب الود فى قلوب الإخوان . ثم مضيت فى أمرى أصعد فى نجاد الحياة وأصوب فى وهادها ، وأنت عنى لاه ساه وأنا عنك لاه ساه ، لا يسأل أحد منا عن صاحبه ، ولا يبتغى أحد منا إلى صاحبه وسيلة أو سبباً . ثم أقبلت على هذا السفر كما أقبلت على كثير غيره من الأمر ، لم أوذنك بشىء لأنى لم أتعود أن أوذنك بشىء . وها أنت هذا تكتب إلىّ تتجاوز فى كتابك العتاب إلى اللوم . فماذا حدث فى مصر من الأحداث ؟ ما زالت أمور مصر تجرى على النحو الذى تركتها تجرى عليه ، لم يتغير منها شىء ، ولم يبد للمنافع فيها والآراب وجه

جديد . ما سؤالك عني بعد نسيانك لى ؟ ! وما تجنيك علىّ بعد هذاالإغضاء الطويل؟! أتريد أن أفسر لك غامض قلبك وخفى نفسك وما التوى عليك من ذات ضميرك لعلك تجد فى هذا التفسير شفاء لبعض ما يؤذيك من هذا الداء الدخيل منذ أيام ؟ أتريد أن أتحدث إليك بأنى عاتب عليك لأنك أغضيت عنى وقطعت من أسبابى ما كان حقه أن يوصل ، وأن أفصل لك أعراض هذه القطيعة ومظاهر هذا الإغضاء ، وأن أحصى عليك بعض ما أتيت مما لا تحب ولا أحب ، فأكون أشبه بالطبيب حين يستكشف الداء ويشق على المريض بعلاجه ولكنه يبرئه آخر الأمر ، أو أشبه شيء بالجراح حين يفتح الدمل فينقيه مما جمع من الصديد ؟ أرح نفسك يا سيدى ، لست طبيباً ولا جراحاً ، ولست أحسن علاج النفوس المريضة ولا شفاء القلوب المدخولة ، ولست أكره شيئاً كما أكره التنقيب فى ضمائر الناس . لن أعتب عليك ؛ فإنك لم تدع إلى العتاب سبيلا . ولن ألومك فإنى لا ألوم إلا من أعتد به . وقد كنت أعتد بك حين كنت تمنحنى ودك . فأما وقد استرددت هذا الود وآثرت به قوماً رأيتهم أحق به وأجدر ، فإنى أهنئك بأصدقائك الجدد ، وأهنىء بك أصدقاءك

الجدد ، وأرجو ألا يعرض بينك وبينهم من الأحداث ما يصرفك عنهم أو يصرفهم عنك ، ومن يحولك إلى غيرهم أو يحولهم إلى غيرك كالذى عرض بينك وبيني من الأحداث . ومن يدرى هل مما يلائم نفسك أن تحدث صداقة جديدة بين حين وحين ؟ ففى كثير من الناس ملل ، وفى كثير من القلوب سأم . والناس يبدلون ثياب أجسامهم ويغيرون ألوان ما يأكلون ويشربون ، فما عليهم أن يبدلوا ثياب قلوبهم ! وقد قال الراجز العربى منذ قرون طوال :

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بوسها

فالبس يا سيدى للحال التى نحن فيها لبوسها. ولبوسها يسير جدا قريب جدا رقيق جدا ، هو أن نوادّ الأخلاء ما نفعتنا مودّتهم ، وأن نحتملهم إذا لم يجلب علينا احتمالهم مضرة أو لم يضيع علينا منفعة ، وأن ننسل من ودهم كما تنسل الشعرة من العجين إن آنسنا من هذا الود جلب مضرة أو تضييع منفعة أو إغضاب من لا ينبغى أن نتعرض لغضبه من الناس . وأى شىء أيسر من أن تصفو لى اليوم وتكدر لى غداً ، ثم تعود إلى مثل ما كنت فيه من الصفو ، ثم ترتد إلى مثل ما كنت فيه من الكدر ، وتجعل نفسك على هذا النحو كرة تقذفها من الصلة إلى القطيعة ومن القطيعة

إلى الصلة ، وترجحها بين القرب والبعد ، وبين الوصل والصد ، وبين الرضا والسخط . كل ذلك يسير قريب ملائم للحال التى نحن فيها ، ولكنه لا يلائمنى ، وإنما يخالف طبعى كل المخالفة . وما أكثر ما كنت أغيظك بترديد هذا البيت :

حىّ الحمول بجانب الرمل   إذ لا يلائم شكلها شكلى

فاسمعه منى للمرة الأخيرة ، واعلم أن شكلك لا يلائم شكلى ، وجنبنى ما تعلم أنى أكرهه أشد الكره من الرياء والتكلف والنفاق ، واقبل أو لا تقبل تحية خالصة يحملنى الأدب على أن أضعها فى آخر هذا الكتاب . . .

ولكنى لم أكد أفرغ من إملاء هذه الرسالة حتى رأيتها ثقيلة ممضة قاسية ، فتقدمت إلى صاحبى أن يطويها فيما يطوى . وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

١٠

هون عليك ياسيدى ، وثق بأنى لست لائما لك ولا واجداً عليك ؛ فالله لايكلف نفساً إلاوسعها . وأكرم ما ينبغى للرجل ذى المروءة من المنازل أن يتأدب بهذا الأدب الكريم الرفيع فلا يكلف الناس ما لا يطيقون ، ولا يشق عليهم بما لا يستطيعون أن يتحملوا من الجهد . ونحن فى أيام تفرض على الذين يريدون الحياة اليسيرة السهلة أن يؤثروا العافية ويتجنبوا المصاعب ويتخففوا من الأثقال . والحياة التى نحياها فى هذه الأيام أشبه شىء بالبحر المضطرب الذى تعصف به الريح ، ويصطخب فيه الموج اصطخاباً يوشك أن يكون هديراً ، ويتعرض من يعبره للهول كل الهول إذا لم يكن خفيفاً رشيقاً يميل مع الريح كل مميل وينحرف مع الموج كل منحرف ، فإن لم يفعل ذلك هوى إلى القاع أو أوشك أن يهوى إلى القاع .

فلا تلم نفسك ، ولا تحسبنى ألومك على أنك قد تخففت من

بعض الثقل، وتحررت من بعض القيد، وأعفيت نفسك من بعض هذا الواجب الذى يفرضه على الناس ذلك الشيء القديم العتيق البالى الذى نسميه الأخلاق . الأخلاق شيء رث حقا قد أكل الدهر عليه وشرب، وأبلاه تصرف الأيام وتقلب الأحداث وتتابع الخطوب ، حتى أصبح تعلة العاجزين وتكأة الخاملين الخامدين الذين لا يبغون فى الأرض تقدماً ولا علوًّا ، والذين لا يحسنون مجاراة الأيام وملاينة الحوادث الهوج .

هون عليك يا سيدى! لقد كان ابن الزيات يقول إن الرحمة خور فى الطبيعة ، فلنقل مع ابن الزيات إن الوفاء قصور فى الهمة وفتور فى العزيمة وفساد للمزاج . ولنقل مع ابن الزيات وأمثاله إن إخاء الإخوان وصداقة الأصدقاء وود الأخلاء كل ذلك حسن إن أدى إلى منفعة أو ذاد مضرة أو وقى من مكروه، فأما إن ضيع المنفعة وجلب المضرة وورط فى المكروه فهو الحمق الأحمق، وهو العجز العاجز ، وهو الخصلة التى تدل على أن صاحبها لا يصلح لشيء ولا يرجى لشيء ولا ينتظر منه شيء . وضع نفسك حيث تريد لك الأخلاق أن تكون، ووازن بين حالك إن فعلت وبين حالك بعد أن لم تفعل . إن صديقك

الذى كنت تعرفه وتألفه وتركن إليه مجفو قد نبت به الدار وتنكر له الذين يملكون النفع العاجل والضر القريب . فلو قد وفيت له وأصفيته مودتك وصدق إخائك ، لجفاك من يجفوه ولتنكر لك من يتنكر له ، ولنبت بك الدار التى نبت به ، ولانصرفت عنك المنافع التى انصرفت عنه ، ولأقبلت عليك المحن التى أقبلت عليه ، ولأقمت بين قومك فى دار قلّى لا تجد فيها من يعرفك ولا من يألفك ولا من يتقرب إليك ولا من يبتغى إليك الوسائل ويصل بك الأسباب . إذن لخلوت إلى نفسك فى أكثر الوقت ، ولالتمست ما تحب فلا تجد منه شيئاً ، ولفررت مما تكره فلم تجد إلى الفرار منه سبيلا . وأنت رجل تحب الدعة وتؤثر السعة وتطمع فى خفض العيش وبسطة الرزق وامتداد الجاه واتساع السلطان ، لا تستطيع أن تصبر نفسك على الضيق ولا أن تروضها على التواضع ، ولا أن تقنعها بما قسم لها ؛ فهى دائماً طامعة طامحة ؛ وأنت دائماً شقى بطمعها وطموحها تتكلف فى سبيلهما من الجهد ما يطاق وما لا يطاق ، وتأتى فى سبيلهما من الأمر ما يباح وما لا يباح ، وترضى فى سبيلهما بالمنزلة التى لا يرضاها من كرمت عليه نفسه فأبى أن يخضعها للضيم ويذلها لتحكم المتسلطين .

هون عليك يا سيدى ! لقد عرفتك حق معرفتك و بلوتك أحسن ما يبلو الإنسان الإنسان . وعرفت فيك هذا الطمع الذى لا حد له ، وهذا الطموح الذى لا ينتهى إلى غاية ، وعرفت فيك الضعف عن مقاومة الشهوة حين تعصف بك ، وعن الامتناع على المنفعة حين تلح عليك . وأنت رجل قد نشأت محروماً مأزوماً مكلوماً هيناً على الناس ، وقد آذاك هذا كله فى نفسك أشد الإيذاء ، فنشأت وفى نفسك نزوع إلى الانتقام وجشع إلى الظفر بالثأر . شقيت ورأيت قوماً حولك يسعدون ، فرأيت فى سعادتهم إهانة لشقائك ، وأضمرت لهم فى نفسك حقداً دفيناً و بغضاً كميناً وعداء مبيناً ، وأزمعت أن تجاهد فى الحياة حتى تنعم كما نعموا وتسعد كما سعدوا وتصبح لهم ضريباً . فلما بلغت من ذلك ما أردت لم تفتر همتك لأنها لا تعرف الفتور ، ولم تقعد عزيمتك لأنها لا تألف القعود ، ولم تضق آمالك لأنها لا تحب الضيق ، وإنما أزمعت أن تفوت القوم بعد أن أدركتهم ، وأن تستعلى عليهم كما استعلوا عليك ، وما زلت تجد وتكد حتى ظفرت من ذلك بالشىء الكثير ، تظهر للناس وداً وتضمر لهم عداء وحقداً . لم تخلص نفسك قط لصديق ولم يصف قلبك قط لخليل ، وإنما أنت رجل متكلف

دائماً تتودد لمن خفت وتتودد لمن أكبرت وتتودد لمن رجوت ، حتى إذا أمنت من تخاف ، وناظرت من تكبر وأدركت ما ترجو ، تنكرت وتنمرت واستكبرت ثم بغيت وطغيت واستعليت ، ثم آمنت بنفسك وحدها ولم تؤمن بغيرها إلا أن تكون لك عنده حاجة أو تكون فى نفسك له مهابة .

وكذلك أنت دائماً متكلف فى الصداقة ، متكلف فى الإخاء ، متكلف فى المجاملة ، متكلف فى المصانعة . فالأخلاق عندك وسيلة لا غاية ، والوفاء عندك أداة لتحقيق المنافع وقضاء المآرب وإدراك الآمال . كذلك عرفتك منذ اتصلت بينك وبينى أسباب الحياة . كنت شديد الحاجة إلىّ فكنت شديد الوفاء لى ، وكنت شديد الخوف منى فكنت شديد التحبب إلىّ ، وكنت تظن أنى قد خدعت عنك وآمنت لك وصدقت أحاديثك الكاذبة وأمانيك الخائبة واطمأننت إليك كما يطمئن الأخ الصديق إلى الأخ الصديق ؛ فكان ذلك يزيد مكرك بى وكيدك لى وخداعك إياى . ولم أكن شهد الله إلا مشفقاً عليك راحماً لك. والحر يخدع أحياناً فينخدع ، كما أنه يظلم أحياناً فيظّلم ، على علم منه بأنه منخدع ، وعلى ثقة منه بأنه مظّلم ، يدفعه إلى ذلك رفقه

بالضعفاء وعطفه على البائسين . وأى الناس أشد ضعفاً وأبأس بؤساً وأحق بالرحمة والعطف من هؤلاء الذين تصغر نفوسهم وتكبر آمالهم !

كنت إذن شفيقاً عليك رءوفاً بك منخدعاً لك ، لا تتقدم إلا دفعتك إلى أمام ، ولا تبلغ منزلة إلا رقيت بك إلى منزلة أعلى منها ، وأنت تقول فى نفسك يا له من أحمق ! وأنا أقول فى نفسى يا له من بائس ! حتى إذا دارت الأيام وخيل إليك أنك قد بلغت الغاية وأدركت الأمد واستأثرت بالأمر تصرفه كما تحب وتهوى ، أرسلت نفسك على سجيتها وأجريتها على طبيعتها ، وألقيت تلك الحجب التى كنت تتصنعها ، وألغيت تلك الكلف التى كنت تتكلفها ، وأقبلت على الخيانة والغدر والجحود ، لا تتحفظ ولا تتحرج ولا تحتاط . خيل إليك أن الحياة قد استقامت لك ، وأن الدنيا قد لاذت بك ، وأن السلطان كله قد انتهى إليك ، فاستخففت حتى بأيسر المجاملة ، واستهترت حتى بأنكر النكر . ثم لا أدرى كيف ثابت إليك نفسك القديمة أو كيف ثبت إليها ، وما هذا الطائف الذى طاف بك فعلمك فى لحظة من لحظات الحياة أن لبعض العهد القديم حقوقاً يجب أن تحفظ

وحرمات يجب أن ترعَى، وإذا أنت تكتب إلىّ كتابك هذا الغريب تذكرنى فيه بأيامنا تلك ، وتريد أن نعود إلى عهدنا ذاك .

هيهات يا سيدى هيهات ! قد صرح الشرّ وظهر النكر واستبانت خفيات النفوس . وأقسم لقد خدعت نفسك أو خدعت عنها حين كتبت إلىّ هذا الكتاب ، ولكنك لم تخدعنى الآن ولن تخدعنى غداً ، كما أنك لم تخدعنى قط ؛ فأنا مشفق عليك الآن وغداً ، كما أشفقت عليك أمس وأول من أمس وأول من أول من أمس . ورب إشفاق خير منه الاحتقار. ورب رحمة خير منها النقمة ورب عطف خير منه الازدراء . ولكنك لا تبلغ من نفسى أن أحتقرك أو أزدريك أو أنقم منك . فانعم بما أنت فيه من دعة كاذبة وسعة باطلة وجاه موقوت . وثق بأن الأيام التى دارت لن تقف ولكنها ستمضى فى دورانها ، وستبدى لك صفحتها ، وستلقاك بالقليل أو الكثير مما تكره . وثقْ بعد ذلك أو مع ذلك بأنك ستجدنى كما وجدتنى دائماً معيناً لك دافعاً إياك محققاً لك المنافع قاضياً لك الآراب ، لا عن رحمة ولا عن عطف ولا عن إشفاق ، ولكن عن ازدراء واستخفاف . وأنا مطمئن إلى أن ذلك سيرضيك ويسليك

ويسرِّى عنك الهم ، ويفتح لك أبواب الأمل ؛ لأنك لا تكره شيئاً كما تكره التحليل والتعليل والتأويل ، ولا تفر من شيء كما تفر من التعمق والفهم ولأنك تأخذ المنافع كما تجيء وكما تكون ، لا تسأل من أين تأتى ، ولا تسأل كيف تأتى ، ولا يعنيك أن تعرف من أين تأتى أو كيف تأتى ، وإنما يعنيك أن تتلقاها متى عرضت لك .

فانعم بحياتك هذه الجاهلة الغافلة ، وأرحنى من جهلك وغفلتك ؛ فإنى لا أحب أن أستقبل الأمر إلا عالماً بمصادره وموارده . وبعد فأنا مستيقن أنك لم ترسل كتابك هذا الغريب حتى أنكرته ولمت يدك على أن خطته ، ولمت نفسك على أن أسلمته إلى البريد ، وجعلت تسائل حين تخلو إلى نفسك وحين تلقى أصحابك الذين يشاركونك فى هذه الضعة الوضيعة : كيف يكون لقائى لهذا الكتاب ، وكيف يكون ردى عليه ، وكيف يكون تأثرك بهذا الرد ؟ فاطمئن ياسيدى ؛ فلن تعرف من هذا كله شيئاً ؛ لأنى سأتقدم إلى. صاحبي فى أن يطوى هذا الكتاب فيما يطوى من الأوراق. وما أكثر ما يطوى من الأوراق ! .

لن تقرأه إذن ، ولن تعلم كيف تلقيت كتابك وكيف كان

ردى ، عليه ولن تتكلف الجهد اليسير أو العسير لتلائم بين سيرتك التى تحبها وبين ما أحب أنا أن يكون عليه الأصدقاء .



١١

لا تشق على نفسك يا سيدى ولا تكلفها ما لا تريد أن تتكلف من المودة بعد أن انقطعت أسبابها، ومن الوفاء بعد أن عصفت به الريح . لست أدرى ما هذه الظاهرة الجديدة التى أخذت تظهر منذ وصلت باريس . فهذا الكتاب الذى تلقيته منك هو الكتاب الثالث من هذه الكتب التى تتكلف الود وتتصنع الحرص على الوفاء . أيمكن أن يكون الندم قد وجد إلى نفوسكم سبيلا ، أم هو الإمعان فى المكر والغدر والخداع يدفعكم إلى هذه الكتب التى تقطر وفاء وسخاء وإخاء بعد أن قدمتم بين أيديكم من الأعمال ما يقطر رياء ونفاقاً وكيداً ؟ !

تبارك الله ! كنت تريد أن تلقانى قبل أن أبرح الأرض، فاحمد الله على أنك لم تلقنى ؛ لأنى عرفت غدرتك الشهباء، وتمنيت أن يجنبك الله لقائى حتى لا تتورط فى الخزى حين ترى صديقاً لم يقدم إليك إلا خيراً ، ثم لم تقدم إليه إلا مكراً وغدراً .

احمد الله إذن على أنك لم تلقنى. قبل أن أبرح الأرض . واجتهد فى ألا تلقانى بعد أن أعود إلى الأرض ؛ فإنى لا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام أنفسهم ، فأولى ألا أحب للناس أن يستخذوا من أنفسهم أمام الناس . ولو استطعت أن أستر سيئاتك عن نفسك لأجنبك الاستخذاء أمامها لفعلت . ولكن الأيام ستقوم عنى بهذا الأمر ، فستنسيك غدرك ومكرك ، وستصور لك أنك الأخ النقى الوفى الأبى ، وستنسينى أنا أيضاً مكرك وغدرك وجحودك ؛ وستخيل إلىّ أنك ما زلت كما كنت رجلا يظهر الخير ويخفى الشر ولا يجاهر بالخيانة ولا يصرح بالإثم تصريحاً . ولكن دع الأيام تفعل فعلها ، أتح لها أن تنسيك نفسك ، وأتح لها أن تنسينى غدرتك الشهباء . والقنى إن شاء الله بعد شهور ؛ فلن تجد عندى إلا ما تحب . ومن يدرى ! لعلى لا أنتظر بك أن تسعى إلىّ ، ولعلى أن أسبق إلى دعائك أو السعى إليك ؛ فإنى قد أخذت نفسى منذ دهر طويل بقول بشار :

وصاحب كالدمّل المُمِدّ حملته فى رقعة من جلدى

وأخذت نفسى بقوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وإن كنت لا أشرب على القذى إلا ود هؤلاء الأصدقاء الذين يتكلفون الودّ وليسوا منه فى شىء .

وبعد، فقد أهملت كتاب صاحبيك فلان وفلان، لم أرد عليهما أو لم أرسل ردى عليهما ، فما لى لا أهمل كتابك أنت كما أهملت كتابى صاحبيك ! أرحنى إذن من نفسك وأرح نفسك منى ، وانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . لن تقرأ هذا الكتاب ؛ لأنى سأتقدم إلى صاحبى فى أن يطويه بين ما يطوى من الأوراق . وما أكثر ما يطوى من الأوراق !

وقد يسأل القارئ ما بالى خرجت بهذه الكتب من السر بعد أن استودعته إياها؟وما بالى أقرئ هؤلاء الكاتبين ردى على كتبهم منشوراً فى كتاب مع أنى أبيت أن أقرئهم هذا الرد فيما بينهم وبين أنفسهم ؟ وجوابى على هذا السؤال يسير جدا، وهو أنى لم أتلق فى باريس كتباً ولم أرد عليها . وإنما أنفقت فى باريس وفى الطريق بين القاهرة وباريس ساعات كثيرة، أفكر فى أفرادمن الناس منهم من أعرف ومنهم من لا أعرف ، ولكنهم جميعاً قد أذعنوا

للمنفعة واستسلموا للمآرب ، وأذلوا أنفسهم للحاجات ، وأهدروا من الأخلاق وقوانين الود ما تواضع الناس على أن يكبروه ، ومسنى من بعضهم شر قليل أو كثير ؛ فذكرتهم فيما كنت أذكر ، وتحدثت إليهم فيما كنت أتحدث . وأخص ما يمتاز به السفر بالقياس إلى أنه يردنى إلى نفسى ويذكرنى أشياء تصرفنى عنها شؤون الحياة وخطوبها أثناء الإقامة . فقل إن شئت إنى نائم حين أقيم ويقظ حين أظعن ، وإنى أستحضر أثناء الظعن ما يعرض لى وما يعرض من حولى أثناء الإقامة ، كما يستحضر المستيقظ ما يستطيع أن يستحضر مما عرض له أو عرض من حوله فى الأحلام التى يسوقها النوم إليه أو يسوقه إليها . وأنت ترى أن يقظتى ليست باسمة دائماً ؛ لأن أحلامى ليست باسمة دائماً . وأنت ترى أنى لست فى ذلك بدعاً من الناس ؛ فالرجل الذى تبسم أحلامه دائماً وتبسم يقظته دائماً لم يخلق بعد. والإنسانية تبذل ما تبذل من الجهد وتلقى ما تلقى من العناء وتحتمل ما تحتمل من المشقة لعلها أن تتيح لهذا الإنسان الذى يبسم حلمه وتبسم يقظته أن يوجد فى يوم من الأيام .

١٢

صديقى العزيز . . .

أعلم أنك لم تكد تعود إلى باريس أثناء الشتاء حتى قعدت فى دارك وأغلقت بابك ، وآذنت أصدقاءك ومحبيك أنك لا تريد أن يشقوا عليك ولا على أنفسهم بالسعى إليك؛ لأنك لن تلقى منهم أحداً . تحرص على أن تخلد إلى الراحة وتفرغ لما تريد أن تفرغ له من العمل . ولكننا نلمّ بباريس إلمامة قصيرة ولا نستطيع أن نسلو عن أن نهدى إليك تحية ملؤها الود والوفاء ، وسنكون أسعد الناس إن أتاحت لك صحتك وأتاح لك وقتك أن تلقانا ساعة حول مائدة الغداء فى اليوم الذى تختاره قبل يوم السفر الذى سيكون فى اليوم الخامس من هذا الأسبوع . وقد فرغنا من قراءة كتابك الأخير ، فزادتنا هذه القراءة إكباراً لك وإعجاباً بك إن كان من الممكن أن يكون فى إكبارنا لك وإعجابنا بك مزيد .

وقد تلقى هذا الكتاب فى الضحى ، ولم يتجاوز النهار نصفه حتى تحدث إلىّ فى التليفون كأحسن ما يكون الحديث ، وأنبأنى بأنه سيتغدى معنا إذا كان الغد . ولست أدرى كيف تلقيت حديثه ، ولكن الذين كانوا حولى رأوا نوراً يغمر وجهى فجاءة كأنما أشرق عليه من أداة التليفون . ولست أدرى كيف انتظرت هذا اللقاء الموعود ، ولكن الذين كانوا حولى شهدوا بأنهم لم يرونى قط بحيث رأونى من سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق ورقة الحديث . ولست أدرى كيف استقبلته حين أقبل ، ولا كيف قضيت معه تلك الساعة القصيرة نصيب من الطعام قليلا ونخوض من حديث الأدب والأدباء فى بحر لا ساحل له ، وإنما أعلم أن هذه الساعة القصيرة كانت وما زالت وستظل تعدل عاماً كاملا من الأعوام التى أقضيها مقيما فى مصر أو متنقلا خارج مصر . وأعلم كذلك أنى صحبته إلى داره وودعته عند باب الدار ، واستبقيت سماحة النفس وطلاقة الوجه وحسن الخلق وعذوبة الحديث والابتسام للحياة والأمل فى الأيام يوماً وبعض يوم . ثم أخذنا نتهيأ للعودة إلى القاهرة ، فنزور ونزار ، ونحزم الأمتعة كما يقال ، ونسعى إلى القطار ونقضى فيه الليل كله

ثم نقضى فيه أكثر النهار نستقبل إيطاليا مع الشمس المشرقة ونبلغ جنوا حين ينشر الأصيل حزنه الشاحب على الأحياء والأشياء ، ثم ننفق الليل فى الفندق وننفق النهار فى مدينة جنوا متنقلين بين أحيائها فى يوم مطير بارد ، ثم نأوى إلى السفينة مع الليل وأنا فى أثناء هذا كله أبحث عن نفسى فلا أجدها ، وألتمس صديقى ذاك الذى فارق الحياة منذ قليل والذى لقيته فى سفرى إلى باريس ونعمت بصحبته فى جنوا ، وسعدت بحديثه فى السفينة والقطار فلا أجده . وأريد أن أستحضر تلك الساعة الحلوة القصيرة التى قضيتها مع صديقى ذلك الكريم العظيم فلا أجد إلى استحضارها سبيلا ، وإنما هى الحياة الفارغة التى يملؤها السخف : زيارات تؤدى وزيارات تتلقى ، واضطراب فى هذه الشؤون التى يضطرب فيها المسافرون ، وجلوس إلى مائدة الطعام قبل أن نركب القطار ، وإقبال على طعام الإفطار الذى تحمله إلينا فى الحدود فتيات مشرقات النفوس والوجوه والأصوات ، ثم محاولة للتفكير فى غير نفع ، ومحاولة للحلم فى غير طائل ، وإغراق فى التدخين ، وتجاذب للحديث الذى لا يغنى عن أصحابه شيئاً . وقد خرجت السفينة من الثغر أثناء الليل ، وأصبحنا وقد أذهلنا

البحر عن أنفسنا : ريح عاصفة قاصفة ، وموج مضطرب مصطخب ، وسفينة تريد أن ترقص فلا يتاح لها الرقص ، وإنما هى حركة عنيفة مختلطة تميل بها إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك ، وتميل بها إلى أمام ثم إلى وراء ، وآنية تسّاقط هنا وهناك ، ودوار يلزم أكثر السفر مضاجعهم ، وخوف يعبث ببعض النفوس ، والشمس مع هذا كله مشرقة بنور ربها تسخر فى هدوء من السفينة والسفر والبحر ، كأن الريح من حولها لا تعصف ولا تقصف ، وكأن أمواج البحر لا تضطرب ولا تصطخب ، وكأن حركة السفينة لا تختلط ، وكأن ألواح السفينة لا تبعث هذا الأنين الذى يؤذى النفوس .

ونحن ننفق أكثر النهار بين غضب الريح واضطراب البحر وسخرية الشمس الهادئة التى تملؤها الكبرياء : حتى إذا دنا الأصيل سكنت الريح وسكت البحر واستيقظ الناس سكارى وما هم بسكارى ، وأقبلوا على طعام العشاء فى فتور فاتر خير منه الاستقرار فى المضاجع والمخادع . ثم يرد الليل الهادئ إلى السفر شيئاً من قوة وفضلا من نشاط ، فيستقبلون يومهم الثانى فرحين مرحين كأنهم لم يمتحنوا فى أنفسهم وأجسامهم امتحاناً عسيراً منذ وقت قصير . وهذه فتاة من فتيات الفن الرخيص ترقص

للشمس المشرقة الساخرة ، وللبحر الهادئ المطمئن ، وللسفر الذين لا يعنيهم من الرقص إلا جسم غض بض يعرض عليهم من محاسنه ما ظهر وما خفى .

وهذا رجل فى الطرف الآخر من السفينة قد استحضر دبًّا صغيراً فى قفص ضيق ضئيل ؛ فهو يخرج الدب من قفصه بين حين وحين ، ويعلمه ألوان الرقص وفنون اللعب ، يأخذه بالرفق قليلا وبالعنف كثيراً . والناس من حوله ينعمون ويبتهجون : فريق من السفر يستمتعون برقص الدب ، وفريق آخرون من السفر يستمتعون برقص الفتاة الحسناء . والبحر الساكن المستقر والشمس الهادئة المشرقة يسخران من أولئك وهؤلاء . وتبلغ السفينة ثغراً من الثغور ، فلا تكاد تستقر فيه حتى يصعد إليها المجون والفجور يستهويان من يستجيب للهوى ويغويان من يستجيب للغواية . وينبئني صاحبي ببعض ذلك ، فأعرف سخرية الوجود بالناس ، واستعلاء الله عز وجل عن أن يؤاخذ الناس بما يكسبون . فلو قد فعل لما أبقى على ظهر الأرض ولا على متن البحر من دابة .

وأنا أفزع مع صاحبي من هذا كله إلى القراءة والإملاء ، ولكني أحاول على ذلك أن أصل إلى نفسي فلا أجدها ، وأدعو

مع ذلك صديقى ذاك فلا أسمع له جواباً ، وأحاول أن أستحضر حياتى تلك فى باريس فلا أجد إلى استحضارها سبيلا . وأنا ضيق بالسفينة ، ضيق بالبحر ، ضيق بالسفر ، ضيق باعتدال الجو وصحو السماء ورقة النسيم . أفزع من هذا كله إلى القراءة والإملاء ، فلا أجد فى القراءة والإملاء غناء .

وأصبح ذات يوم وقد هدأ سعى السفينة حتى أصبح حركة لا تكاد تحس ، وإذا جندى مصرى فى زيه وأداته قد أقبل فاحتل السفينة ، وكان احتلاله رفيقاً رشيقاً ، اختار له مكاناً ألقى نفسه فيه إلقاء ، وأسند سلاحه فيه إسناداً ، وجعل يتفكه بنظره إلى فريق من السفر ، ويتلهى بالتحدث إلى فريق ، ويقول لى صاحبى مبتسما : « ها نحن أولاء نشرف على أرض الوطن العزيز » .

فتقع فى نفسى هذه الكلمة موقعاً غريباً ؛ لأنها تشعرنى بأنى خرجت من اليقظة فدخلت فى النوم منذ فارقت صديقى ذاك الكريم العظيم .

ثم نهبط من السفينة فنرى ما تعودنا أن نرى ، ونسمع ما تعودنا أن نسمع ، ونقرأ ما تعودنا أن نقرأ ، ونضطرب ما تعودنا أن نضطرب

فيه من الأمر : نوم عميق ثقيل ، وحلم متصل طويل . فمتى يتاح لى أن أستأنف السفر لعلى أن أستيقظ ، فألقى صديقى ذاك الذى فارق الحياة ، وألقى صديقى هذا الكريم العظيم ، وأجد نفسى فى منعطف من منعطفات السفينة فأقول لها وأسمع منها وأجاذبها أطراف حديث إن لم يكن حلواً كله فإن فى مرارته راحة ومتاعا .

السفينة كيرينيا ٨ مايو سنة ١٩٤٨ .

القاهرة ١٥ يونيو سنة ١٩٤٨ .

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر ــ ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ج.ع.م .